

حكايات

على مصطفى المصراتى

قصص قصيرة



حكايات

علي مصطفى المصراتي

الكتاب : حكايات
المؤلف : على مصطفى المصراتى
الناشر : سما للنشر
الطبعة : الأولى ـ القاهرة 2005 م.
الغلاف : الفنان عمر جهان
رقم الإيداع : 2005/5629
الترقيم الدولى : 4-32-5843-977

حكايات

علي مصطفى المصراتي

قصص قصيرة



سما للنشر

الاهداء

إلى الكاتب المبدع

اســتطيع أن أقــول : لو تمثل الحب بين الناس والصفاء والوفاء شيئاً وإنسانـاً لكان زياد على.

فيض من الحب يتدفق من إحساسه النبيل يغمس ريشته في مداد الوفاء ويكتب على ورق الحقيقة.

إلى ولد «باب بحــر» ابن مــدينة طرابلس الغــرب الحضارة والنظارة، إليه اهدى، وقد صنع زياد على جذور المحـبة والتـواصل بين أدباء الوطن العـربي العزيز من المحيط إلى الخليج – هو حقيقة السفير المتجول بين القلوب من صنا ع الحرف الوضئ، زياد على القـصـاص الكاتب القـانوني الصـحـفي، إليـه أهدى هذا مع المودة الدائمة.

على مصطفى المصراتي

14/فبراير /2005

بنسيون البطة العائمة

- هل معقول!؟

لكنه واقع.. ما أكثر الواقع غير المعقول، وما أكثر المعقول غير الواقع. ليست فرضية منطقية، ولا هو مدخل لمحاضرة فلسفية، لكنها حكاية وقصة من واقع تلك الجدران الصماء البكماء - والثرثارة أيضًا - عندما يفض الجراب، وينكت ما في المزود من داخل جوف الجدران الصامتة في شكلها.. والتي تموج وتمور، وهل لا بد أن نُقَدم بطاقته الشخصية!؟ ألا يكفي هنا سرد حكايته، لنتعرف على كل خانات البطاقة، وأزيد بكثير، رجل في آخر المطاف ودع فترة الفتوة وأرد أن ترسو السفينة على شاطئ الأمان مثل زملاء المرحلة أنداد العمر من أبناء جيله. منهم من كان بحارًا أو سمسارًا أو «بلغباشي» جنده الطلاينة في عهد الاستعمار وطغيان الفاشية لبس القميص الأسود ورفع يده بتحية الفاشية وتمزق القميص الأسود وعهده، عربد البعض وهاص، وعندما وخط الشيب خطوطه وبصمت فترات الزمن تجاعيدها، وكاد قوس الظهر ينحني قليلاً.. هدأوا.. واهتدوا مطمئنين آمنين، أكثرهم كان صادقًا في اوبته وتبتله. طيور حلقت وجنحت ثم آبت إلى أوكارها بعد أن هيض الجناح، لم يكن مواتيًا الريح لذلك

الشراع، عواصف الحياة واصطخاب موجها أقوى من سواعد وأصابع غدت أقرب إلى المسبحة من كأس المعربد ويكفي ما استوعب عبر الأجواء والأنواء.

تجرفه الذكريات إلى شطوط بعيدة وأودية سحيقة، زملاؤه أيام الشباب وفرعنة الفتوة، منهم من تاب وأناب أو اختفى وغاب، ومنهم من يلهج بالدعاء المأثور - اللهم أختم بخير - والسعادة كما يراها الحكماء وأهل التجربة والحصافة وحتى البسطاء هي في هدوء النفس.

ها هو آخر المطاف يطوف في شوارع المدينة قلقًا كأنما جبال من الهموم فوق كتفيه ورأسه.. كيف يزيحها ويتخلص منها أم هي التي ستزيحه من شاطئ الوجود.. ترهقه.. تحاصره.. تلاحقه كيف يتهرب منها.. هل يزيحها بكأس في مشروب منزوي أم بضحكة من الأعماق... أم يذهب ليسهر سهرة بريئة.. أو حتى غير بريئة في أحد البيوتات والفنادق المتسترة بستار الصمت كيف يزيح الهم قبل أن يزيحه ويطوح به إلى وادي الصمت الأبدي.. قرأ في كتاب نسي عنوانه ولا يعرف مؤلفه وسمع من أحد الشيوخ - أن مما يعجل بالشيخوخة حمل الهم والغم - وقرأ في مجلة تهتم بالشؤون

والشجون الصحية - مما يبقى على حيوية الشباب ونضارته الاسترواح النفسي - وشرح هذا أن يجعل في بيته مشجباً يعلق عليه الهموم والأحزان.. مشجب عند مدخل البيت ومشجب عند السرير لا يحمل الهم عند الوسادة، وضحك رغم ثقل الهموم ومطاردة الأحزان.

وأين يجد هذا.. وأين يصنع هذا النوع من المشاجب.. أين تباع!؟ وضحك صاحبه وهو يداعبه.

- أنت تستطيع أن تصنع المشجب كما أنك تصنع تلك الهموم والأحزان أنت تصنع همومك.. إذاً في قدرتك أن تتغلب عليها قبل أن تتغلب عليك لا تهرب منها إنما واجهها لكن لا تحملها معك إلى الوسادة.

- هل يمكن هذا؟ وكيف!؟

- بالإرادة والحزم.

لكن ها هو في دوامة من الأفكار حاصرته ونغصت عليه.. هل يعود للكأس، ما أمرّ الانتكاس وأصعبه أن المرارة لا تعالج بالمرارة وفي هذه المرحلة وماذا بقى له من الشوط إن فكر في هذا زاد هماً وإن عاد عادت إليه العواصف.

يراها في ركن البيت متربعة أو منزوية متربصة لغم قابل للانفجار في لحظة، وبأي إشارة يراها.. يسمعها.. يحس بها مترصدة له، متحنشة وكل المعاذير والمحاذير وكل التصورات تسقط ماذا يصنع هذا المنكود بها.. زمامها انفلت فاض إناؤها منغصة بلا ضرورة ولا داع لهذا أهي من ذلك الطراز، صورة ساقها صاحب الشواهد «لكاع» والذي قنص صورتها نكيد مثله من شعراء الأقدمين «الحطيئة» سليط وقع في سليطة ولكل زمن حطيئاته، وحطيئيه.

أُطوِّف ما أطوف ثم أوى   إلى بيت قعيدته لكاع

والمشكل أنها قعيدة ركن منزوي فلو شغلت بعمُل أو التهت بنشاط لهان الأمر، تخفف العبء. كانت تفرغ شحنات غضبها في اتجاه آخر، وظل في تطوافه بشوارع المدينة يشعر بغربة والزفرات تلوعه، ولا تنفس عنه. ما اتعس أن يصبح ويمسى الإنسان غريباً في وطنه، حائراً بين أهله، منغصاً عليه بين جدران بيته.. الأولاد كبروا.. البنات تزوجن وعقلن، وأصبحن عقيلات.

لكن هي هي.. لم تكبر ولم تعقل قالوا إن سن العقل في الأضراس ينبت بعد الأربعين، ترى هل عند هذه النكدة اللكاع سقط ذلك الضرس، أو لم ينبت، وإن ركبوا ضرساً للقضم أو الهضم.

يتكلم الإيطالية بطلاقة العوام يجيد حديث المشافهات ولم يعلم الاستعمار الفاشي الشعب لغة الكتابة والقراءة والثقافة، حرم الشعب من الدراسة والتعليم المنظم.

وقليلاً من الفئات لقنوهم لغة التخاطب، لغة الشارع والسوق وطوابير التجنيد والحرب التي ساقوهم إليها في حُرب الحبشة والحرب العالمية الثانية، ولكن هو بشكل ما بالاجتهاد والجهد الذاتي مارس تعليم نفسه ليعيش من ناحية، وليغازل الإيطاليات حتى لا يحقرنه عندما يتكلم لغة أهل بلاده.. يتراطن في الشارع والسوق والملهى، وأنقذته رطانته وشكله وسحنته في عديد من المشاجرات والخصومات فلو شعروا – آنذاك – إنه ينتمي لغير جنسهم ويتكلم بغير لغتهم لأطبقوا عليه وأهلكوه في الشجار.

جند في الحبشة وساقوه مع من ساقوا، وصلت رصاصة إلى كتفه، في قدمه أحدثت له عرجة خفيفة أنقذته من التجنيد في الحرب العالمية الثانية، ولم يعرف الاستقرار في مهنة أو صناعة واحدة عمل في الجمرك كاتباً مسجلاً، وعاش فترة سمساراً في السوق أو كاتباً لسمسار، ومترجماً للسياح من الإيطالية إلى العربية. وقاطع تذاكر في الملاهي الليلية، وعمل

أيضـًا «دون جوان» لعجائز متقاعدات ويغيظ الشباب باحتكاكه بالأجنبيات، وهو أحيانـًا لا ينال بغيته، يكفي أنه يترجم لهن ويتـحـدث مـعـهن ويتـضـاحك ويضـيـف إلى سـرب الذكـريات ذكـريات، وبعض ترجـمـاته ورطاناته شـفـاهـيـة أو ترجـمـة آنيـة سوقية ولكن بها يمشي حاله، الناس في بلاده تقلصوا.. أو هو الذي تقلص.



الصـحـاب والرفـاق تغـيـروا - لأن ذلك من طـبـيـعـة الحـيـاة وقانون الوجود، تغير الناس وتبدلت الأذواق لا يهم إن تغيروا، لن تبقى الحياة على وتيرة واحدة، في جولته أخذ يستعرض ذلك المقهى عند باب البحر.. الطاحونة.. الكوشة. ايه يا طحونة الزمن.. تطحن الأعمار والأحلام والأماني هدارة أنت، ما زلت تهـدرين، كم طـحـنـت من أكـيـاس الشــعـيـر والقـمـح وأنوا ع الحبوب.. وكم تزاحمت مجموعات الصبايا والأطفال عند بابك، الأطفـال كـبـروا، والكبـار شـاخـوا والشـيـوخ تواروا وذهـبـوا وراحـوا ظلالاً بهـتـت.. على جـدار الزمن كـانت رسـومـًا وبصـمـات.. ذكـريات وصـور طغت ثم غـاصت.. يصـبطخب هدير

الموج على صخرات الشط، باق في جزالة وبهجة وإشراقة الأمل ووقدة الحب.

هذه الكوشة يبدو أنها من عصر طرغود قرب زنقة الأكواش قرب مزار سيدي سالم المشاط، كم كانت الفتيات اللاثغات باللهجة الطرابلسية الجميلة من بنات باب البحر يزاطن ويتواثبن عندها بصفر الكعك وصواني المقروض وطناجر اللحم وبُرم الطهي والطباهج الفواحة في نشوة عارمة وزحمة وفرحة لا تخفى على الوجوه الآملة الفرحة.. الشفاه الباسمة العيون التي تزيد الكون جمالاً.. وتجعلك تحب الحياة.. تحب الناس.

إيه كم تغّير الزمن.. وغُيرت معالم غدا بعضها أطلالاً.. وأكوامًا تهدمت من طرف السابلة؛ والسبالة والبئر العتيق طمرته الصخور.. عنكبت على الكوشة العناكب، كاد يتعثر في المطب وهو يسير، تغيرت حال الطاحونة لم تعد لها أجراس ولا زبائن، غدت بجوارها آلات «أتوماتيكية» مجلوبةً في لحظات تطحن تصب في كيس ورق «بلاستيك» «نايلون» تذهب مسرعة بلا انتظار ولا لهفة شوق، ولا ترنم أهزوجة وأغنية من شفاه طفلة مثل وجه القمر تُرحب بها ترددها تترنم بها في طريق الذهاب والإياب.. وعند العتبة في لحظة الانتظار ضاعت بهجة

التلهف والانتظار، والتكوكب للأطفال، وترنمات غناء العودة والفرحة بأي مناسبة.. خاصة ليالي المواسم والأعياد.. حتى الأراجيح في الزقاق المتسع والرحبة وشجيرات الظل الظليل طاحونة قرقابة كوشة الكتاب، قهوة دحمان، انتظار وسماع صوت المأذنة من جامع درغوت وقرجي.. وانتظار الأب عودة التلميذ من المدرسة أو الكتاب أو الطفلة من عند العريفة: لعلعات الزغردوات فوق السطوح بمناسبة ختان أو عرس.. أو عودة غائب مسافر، بل حتى وصول جواب ورسالة بها سطور جاءت من غائب ويطمئن.

عودة الطيور أسراب من الكتاب مرحة زائطة غدت أرغفة الخبز باردة لم تعد لها فواح، حتى الورود في خياشمه لم تعد لها عطر مميز مجلوبة من تاجوراء أو «سكرة» والضواحي بل ورود صناعية أو من بلاد الأروام بلا رائحة ولا طعم ولا نكهة مجرد لون لا ترسل عطراً، ولا تعبق فوحاً.

يسير متأملاً.. متألماً.. ينز بين جنبيه جرح الذكريات الممضات.. ماضيات.. مواضي بين الطاحونة والكوشة والمقهى ومسرب مؤدي إلى الزاوية التي كانت تهدر منها التسابيح والتواشيح وصوت الأوراد والأحزاب جماعي هدار.. أمواج من

المشاعر والأحاسيس.. طيب الأنفاس.. تغسل الأدران وتزيل التوتر والأحزان. وتجول بعينيه.. أطلال تلك البقايا حتى الحيطان صبغوها بألوان منفّرة.. هل فقد أبناء هذا الجيل الإحساس بالتناسق وروعة الجمال.

وخلف ذلك الزقاق الرومي الذي قدم أهله من قديم قبيل الغزو الإيطالي وبقى هو بعد زوال الاستعمار الفاشي يقول إنه غدا حجراً من هذا الشاطئ.. جاء حواتًا وظل حواتًا يصطاد السمك في وسط البحر والإسفنج من قاع البحر.. ثم يصيده الزمن على شاطئه.. غداً الرومي يصلح الشباك بأصابعه ومكوكه ومخيطه.. متحملاً لفحات الشمس وقوارص البرد والهواء وهدير وزئير الرياح وتقلبات الأنواء، لم تعد له قدرة على السفر البعيد وحتى السفر القريب، قالوا إنه أسلم ونطق بالشهادتين في لكنة، وإن كان البعض يشك في إسلامه ولماذا يشكون فيه هذا الإنسان الطيب وصدر الدين سمح رحب أرحب من صدر البحر، والسماء لا ترد متجهاً إليها.

ليس منه أذية ولا شر ولا ضرّ إنسانًا، أوصى بأن يدفن في ثرى طرابلس وأوصى بأن تقرأ على روحه الفاتحة.. رحمه الله.

تلك لكاع قعيدة البيت نغصت عليه معاشه ونتفت ريشه ورياشه، طمحت فيه على كبر لم تكبر عقلاً سليطة اللسان.. حطيئيه الكلمات.. نقناقة هلوع تنوعت مطالبها كأنما تحت يده كنز سليمان ولديه خزينة قارون تطلب منه ما لا يستطاع، لم تعرف الحمد والشكر، القناعة لم تمر ببابها ولا شباكها ليست في قاموس حياتها.. قال بعضهم ناصحًا له ممن له خبرة بهذا النوع من المخلوقات:

- ارضها ادعكها تلين.

وقال آخر نصيحة همسًا لئلا يسمعه أحد:

- بعد أن نغصت عليه وتثاقل نهاره وتطاول ليله وحاصرته بالتنكيد انفصل عنها، أجّر دارًا في الحي القديم وقطن وحيداً في حجرة باردة ينوس فيها فنار يرسل الضوء الخافت.. عاشرته مجموعة من القطط التي عطف عليها وتمسحت به.. كان يضحك ساخرًا هازئًا بذلك الرومي القاطن وحده الملازم للغليون المستهلك لكثير من أعواد الثقاب لاشتعاله.. والملازم للقبعة. الغليون البايب يثبت عنطزته أو أبهته السابقة والقبعة تثبت نسبته وهويته. يربى هذا الرومي بعض الجراو الصغيرة.. ثم يطردها بعد أن تكبر ويظل وحيداً في خان قرب السور.

ها هو مثله أيضًا، بقي في عزلته وحيدًا طوحت به لكاع النقناقة إلى هذا المنفى.. طردته من البيت وبهذا تطرده من الحياة طمحت به.. وتوقحت وغلظ كلامها وطلبت الطلاق؛ الطلاق ذلك اللغم الذي يفجر الحياة وينسف الاستقرار والسعادة.. الطلاق ذلك الذي يعود بالضرر على الجانبين في غالب الأحوال، ولا يكون الطلاق إلا للضرورة القصوى وعند الحاجة الملحة كما شرع الشرع الحكيم.

كان تعنتها وإصرارها عجيبًا لا مثيل له في ذلك المحيط الهادئ الطيب وعجب القاضي لهذه القضية.. امرأة عنود تطلب في إصرار وتعنت الانفصال عن زوجها.

- ماهي الأسباب والدوافع والمبررات، هل هو عقيم؟

- لا.. بل له أولاد وبنات في منتهى الجمال واستقامة السلوك وامتشاق القد والقامة.

- هل هو مريض يشكو من عاهة وآفة!؟

- لا بل هو ينطح الحيط يطيّحه عمره ما دخل مستشفى إلا في عركة بطح وانبطح.. وخيطوله ثلاث غرز.

وهمس القاضي مخفضّاً صوته الخفيض بطبيعته.

- هل مقصر معك -لا سامح الله - في الحق الشرعي!؟

– تعني إيه.. ماذا؟

وطأطأ رأسه وقال:

– هل مصاب بعجز جنسي!؟

– عجز! لا .. إلا عرجة من رصاصة في حرب الحبشة.

– اقصد جنسي هل ينام معك في فراش واحد؟

– O طبعًا قبل أن أزيحه من الفراش والبيت، ومرات في الصيف ينام في السقيفة والا فوق السطح، والآن فليذهب ينتلف مع قططه!

– نعملوا جلسة سرية.

– لا سرية ولا دياولو لو أمكن الجلسة تعملوها في وسط الشارع في وسط السوق.

– باختصار ما سبب الانفصال بعد العشرة الطويلة.

– لا أريده.

وبكل معاني دوافع الرجولة والشهامة والكرامة المرغة في الوحل، وحل التنغيص ثار الرجل وفار وقال:

– لا يا سيدي. رخص الحرير لين واطوا به القدور أنا لا أريدها لو ربطوها في رجلي سأقطع رجلي أنا لم أظلمها.. هل أكون رخيصًا بخيسًا إلى هذا الحد وبهذا الشكل.. وصرخ.. روحي انتلفي.

وصدر منه اليمين الواعر بالثلاثة ولو هناك أربعة أو خمسة لنطق به في فورة غضب. وفي مثل هذه الأجواء من الخصومات والمنازعات تتكاثر وتتوالد الشائعات والتخريجات.

زعم بعضهم همسًا وغمزًا:

- لا بد أن لها صاحبًا.
- اتق الله راعوا حرمات الناس.
- بالعكس الخريف عند البعض خطير.
- قال بعضهم فاحم كالليل.
- قال آخر، أبيض كالجمار، أبيض من آغا علجي.
- وقال آخر، بل هو أصفر كالكرم.

وقال متصنت يحب أن يثبت وجوده.

- بل هو خلاسي أو بنّي.

وهناك أصحاب ضمير ووجدان لا يحبون التعرض لمثل هذه الأوهام والشكوك.

- لا تظلموا الحرمة المسكينة حرام عليكم قد تكون فعلاً مظلومة ياويلكم من الحساب يوم الحساب.

وقال متثبت عاقل:

- هو أحمق لا يطاق، وهي نرفوزة شكاكة في الناس رزقها الله بمن بهدلها وبهدلته.

أما هو لم يجد مبرراً أو إثباتاً لذاته إلا إصراره على صحبة النسوة الأجنبيات خاصة أنه عاشر رومية علنًا، هل هو نكاية أو هو نوع من امتداد لأيام البرطعة والشقاوة أو كما وصفه أحدهم.. سقوط برقع الحياء.

وعندما كان يقضي بعضًا من وقته في طرف مقهى «فوزي عيون» وما زال في العمر بقية تساءل أحد أصحابهُ - ترى أين ذهبت تلك الرومية التي صاحبها ردحًا من الزمن.. أين راحت؟ هل يعثر عليها؟ هل طوت تلك الصفحات أم طواها الزمن؟ المقهى لا يبعد كثيراً عن البيت الذي أجره يقضي فيه عزلته ووحدته في سريره البارد، واجترار أيامه وعتمة لياليه.

وحتى ولده لا يزوره، وقد شق طريقه وعمل في إحدى الوظائف، يبدو أنه غدا ضحية بين السندان والمطرقة، عناد الأب وغرور وغطرسة الأم.

مرة أخرى في ركنه بالمقهى طرق سمعه من جديد حديث شابين من أهل الحومة وكانا يتحدثان عن رحلة روما.

كيف قضيت أجازتك.. ورحلتك أين نزلت!؟

أجاب بنسيون السنيورة «مارجريتا» التي كانت بباب البحر وعادت لبلادها وفتحت بنسيون أطلقت عليه اسم «البطة العائمة» واعطاه اسم الشارع والرقم بروما وأيضًا الهاتف قرأه من بطاقة بصوت مسموع وجذب سمعه بقية الحديث والأوصاف، كانت السنيورة «مارجريتا» في طرابلس وعندها مقهى ومشرب ورجعت لبلادها.. إنها لم تراسله، هل نسيته هل تتحرك شغاف قلبها لو ذهب إليها؟ واستوعب العنوان وكتبه في ورقة مخافة أن ينسى الرقم واسم البنسيون.. هو يعرف خبايا روما وبعض مناطق بالذات... قرر في لحظة حازمة عازمة شدّ رحال العودة إليها.. وخشى أن يضيع الخيط في الخضم المتماوج... إيه قرب لاستنسيوني بثلاث شوارع، كان ينزل في هذا المكان زبائن من عرب عاربة وعرب مستعربة وعرب هاربة وعرب غاربة وزبائن من الخليج البترولي ومن أبناء بلده وأنماط من هواة الفنادق المتوسطة المنزوية، والسنيورة مارجريتا ما زالت نشيطة دؤوبة في العمل.. زادها تقدم السن خبرة وحنكة وتشبثًا بخيوط الحياة وحبالها وعملت في المكان ملحقًا للمواعيد واللقاءات، سكت وتغاضى وبعد تردد انهمك في عمله لديها كاتب حسابات، وأيضًا مع التدرج

له عمولة علي كل سرير يمتلئ.. وسكت.. وهذا الصمت أرقه وهنا من يعرفه، مهنة جديدة ليست لأبائه ولا لأجداده لو سمع بهذا العمل أقاربه ومعارفه لاستهجنوا صنعه ونفروا منه.. هل يصبح ويمسي مسهل ليالي دافئات! كان يتحاشى أن يلتقي مع وجه يعرفه، بكل الحيطة والحذر اسدل شعراً معارا على رأسه، جمة «باروكة» غطت شيبه وصلعته وفي بعض الحالات يغطي رأسه بـ «كاسكت، بيريه» ويبدو مثل سيشلياني أصيل أو سائق كروسة في مالطا. وثقت فيه صاحبته الرومية فقد كان المحاسب الآخر السنيور مانويللي رغم أنه مواطن لها وابن جلدتها وملتها وبلدتها إلا أنه يسرقها، لكن هذا العائد إليها بعد غيبة طالت أصبح موطن ثقتها، لديه شرف المعاملة ودقة المحاسبة، وأحياناً في موطن الإحراج بين الزبونة والزبون قد يفض الشجار والخلاف على الحساب ومغالطة الزبونات، في بعض الحالات قد يقوم بدور الترجمة والوسيط في التفاهم بين الطرفين، ويحدد المواعيد عند الزحام، وبين فينة وأخرى وفي لحظات معاتبة للنفس أو قياس الخطو يرفع رأسه أو يضع رأسه المثقل بين راحتيه ويسرح به الخاطر المتوتر متسائلاً:

ماذا يسمع! أهذا هو عاقبة المطاف!؟

مترجم ومؤدي خدمات لأمثال هؤلاء.. يحاسب لائمًا نفسه موبخًا ذاته أين وصلت!؟ وما هو نهاية الشوط.. أيموت وفي يده قلم المحاسبة مع زبائن الشيطان.. أم أنه سيجمع ثروة ويكون رأسمال ويحوّش خميرة ثم يغلق هذا الباب أو يسكّر هذه النوافذ.. وتواتيه على مسرح تفكيره تصورات قد يفتح مشروعًا آخر بعيدًا عن التنهدات المؤجرة واللقاء الآثم، وأحيانًا - شأن الآثمين والمورطين في لحظات يجد مبررًا ومحاولة لاقناع ذاته لتبرير شهواته وملذاته.. لو لم يصنع هذا ما عساه يصنع ماذا يشتغل؟ سيموت جوعًا على أرصفة الطريق، لن يشعر به أحد.. سيمضي هبوة في هواء.. أو قشة في تيار.. لن يجد ثمن تذكرة.. لو عاد أيعود إلى البيت المهجور والقطط الولودة التي ما أمسكت في حياتها فأرًا.. أو فأرة لكثرة النوم والتكاسل والتمطي ولعق جلدها بطرف لسانها.. ومواصلة التمطي أو المهارشة مع بعضها.

العرب الآخرون لا يعرفونه والجيل الجديد من بلده لا يعرفه لكن الجيل القديم من الزملاء والصحاب لا تدلف أقدامهم إلى هذا المكان ولا يعرف الجناح الملحق به.

ولكن أحيانًا وبالصدفة المباغتة يقع في مواطن ثمل جاء ليقضي لبانات في روما يتأمله.. يحاول التعرف علية ويشك..

يرتاب.. أهو.. أم ليس هو، لا يمكن أن يكون ولد حومته مقيم هنا كاتب حسابات في «بنسيون» البطة العائمة يخلق من الشبه أربعين وأحيانًا مئتين تزداد الأصفار مع تناسل البشر ويصيح بدافع الثمالة.

- الحساب يارومي يا ولد الكلب.

كاد أن يستفزه ويرد له الصاع صاعين لكن ضبط نفسه وتمالك زمام غضبه وتظاهر بأنه لم يسمع ولا يعرف ما قال، واعتقد الزبون أنه سيشلياني من الذين ساقهم موسلليني إلى طرابلس وأنه يشابه ذلك الوجه الذي يعرفه بباب البحر بطرابلس.

- يا رومي أنت وجهك ليس غريبًا عني، هل كنت صاحب طبرنة قرب الباب الجديد والا عند قوس ماركو أم كنت تسكن في الحارة قرب زنقة الربّى شالوم، والربّى نسيم؟

لكنه استمع إليه يثرثر منسابًا وخشى أن غضب ورد عليه وأنفعل يفضح أمره وينكشف حاله وستره فليتركه في حاله، لن يكون آخر السكارى المارين من هنا.. إنه عرضة لهذا وأكثر منه كلام الثمالى لن يستثير العقلاء، ولا أصحاب الخدمات الفندقية فليذهب الكلام أدراج الرياح.

وقد تواتيه في لحظات مؤرقات كوامن التحنان، ومهما ابتعد وتغرب أو نفى نفسه الإنسان يفضل أن يموت في بلده، حتى أنه في لحظة من اللحظات كتب وصيته بالعربية والإيطالية وأبدى رغبته أن يعاد به ليدفن في بلده وأن يصلى عليه في جامع أحمد باشا وأن يدفن في سيدي مندر وأن يزف موكبه بالتواشيح والأناشيد الأندلسية شاش قلبي.. شاش عقلي، على الأقل يحشر يوم القيامة مع أهله وذويه.

الوساوس والهواجس تنتابه بين فينة وأخرى... عرف هواتف الباحثات عن اللذة والمتعة الخاطفة من سيدات مجتمع مخملي وصاحبات أرقام لا يعرف أسماءهن أو أسماء وألقاب مستعارة ومزيفة وشرقيات وأسياويات، وعندما شكت إحدي الحائسات أنه عربي ما عادت إلى بنسيون البطة العائمة ولا إلى الجناح المهيء لمثل هذه الجلسات، تركت له ورقة مالية مطوية وهدية ملفوفة... عالم غريب من طراز عجيب يتفرج عليه ويتعرف على خباياه هذا الغريب.. ما هذا المجتمع البشري! أصبح خبيرًا في هذا المجال، كيف انجرف إلى هذه المهنة.. ما كانت تخطر علي باله، كيف انجرف إليها بواسطة صاحبته السنيورة مارجريتا التي عرفها على الشاطئ.. وفي أمسيات

الصيف في «الليدو» بعد أن أوغل كيف يتراجع، وبعد أن تاه كيف يعود ويتراجع.

اهتمت به، كيف يعتذر لها ويتهرب منها.. إذا تركها هناك المتربص الملعون ابن بلدتها يطمع في ثروتها.. سينتصر عليه هو.. إنه الغريب المغامر أو الجموح المقامر.

يعود... لكن هل يعود لتلك التي نفرته من الحياة في موطنه وانفصل عنها بعد أن طفح الكيل وفاضت مرارته، وإن وصلت إليه الأخبار متسللة من بعيد وأتاها الندم بعد انقطاع أخباره عنها فقد أدركت أنها أقدمت على ما كان موطن وموضوع الثرثرات وتوالى الشائعات هل جنت على نفسها براقش توشوش الناس وتهامسوا، وتولدت من الشائعات ذائعات.. مطولات مسربلات..

ندمت الجموحة في عنادها وأرادت أن تعيده لكن لا تعرف له عنوانًا بعد فوات الآوان.. ولات عودة... كل الجسور تحطمت، وخبا شعاع الأمل في عودة المياه إلى مجاريها.. والأشرعة تمزقت وتهاوت، كل الزوارق جنحت.

هل يحج ويتطهر ويكفر عن سيئاته ويعود كيوم ولدته أمه.. طاهراً.. صافيًا بريئًا.. مبرءًا يتوب آخر الشوط.. باب السماء مفتوح.

لقد حج أبوه - وكان قبضي زمانه وفارس حومته بعد أن عب من الحياة ما عب، وشبع منها إلى حد التخمة ومات والده، في زحام عرفات خير له من أن يموت في زحام الزبائن والزبونات الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن كثير لكن ألسنة الناس لا تغفر.. وألسنتهم نهاشة.



في مساء زاحم بالمواعيد .. ما كان يتوقع أو يتصور ما حدث دخل شاب طويل القامة جميل السمت هادئ الأعصاب.. يحمل حقيبة سفر صغيرة، هو ضرب هاتفًا من المطار وعنده العنوان والرقم وحجز حجرة أو جناحًا، ودله على المكان أحد أصدقائه المغرمين بالجولات والسهرات وانهمك الرجل ليسجل الاسم والعنوان ورقم الجواز رفع بصره قليلاً.. ثم أدار وجهه خشى أن يقع نظر الشاب عليه تسلل متواريًا من ناحية الباب الخلفي وانسل إلى الخارج.. ترك كل شيء في بنسيون البطة العائمة.. لم يحمل معه شيئًا لقد كان الشاب السائح حاجز الغرفة والذي حدد له موعداً وحجز له عندما خاطبه من المطار كان أقرب الناس إليه.. ولده.

واخـتـفـى.. لم يودع ولـم يُعلم أحـداً.. حـتى السـنيـورة رغم الإعلان الذي نشرته عن ضياعه لم يعثر له على أثر.

أنت مرشح للوزارة

-1-

كـان «رشــوان طربيـقــة» من ذلك النوع لا ينكر ولا يعطي حقـًا، قَفّاص من فئة المماطلين، إذا استدان لا يرد، ويضحي بالزمالة والصداقة، والمعارف في سبيل المادة، والمنفعة الخاصة، واستطاع هذا الصعفوق أن يكّون ثروة ويهتبل كل الفرص، ويتطاول في البنيان من الهبش، واللطش، والديون المتراكمة ويتوارى عن دائنيه، سريع الاختفاء زئبقي - كثير المعاذير، متفنن في التلفيق وصياغة الحُجج، هو من ذلك الطفح من تلك البثور التي افسدت وشوهت وجه وروح المجتمع الطيب.

إن داينه أحد عن غفلة أو حُسن نية يا ويل الدائن، تحفى أقدامه وتتقطع أنفاسه وتتشرك سبابيطه، من كثرة الملاحقة المجابهة، والجري ورائه، ينشر أحابيله، ويمد شباكه ويتصّيد ضحاياه، ذات مرة استلف من صديقه مبلغًا زهيدًا ثم بادر برده بسرعة، وبهذا نصب وفرد شباكه وقَدّم الطُعم لاصطياد ما هو أكبر، وثق فيه الدائن عن حُسن نية وحُسن النوايا في دنيا المعاملات أصبحت من الأمور النادرة مُوجودة عند البعض لكنها قليلة لا يعرفها الكثير، ثم طلب رشوان طربيقة مبلغًا لا بأس به أو فيه بأس - ثم مضت المدة التي حددها لرد السلفة وتسديد الدَين.. وتوارى واختفى.

وقالوا مَرة إنه مسافر في مهمة، وكلمة مهمة، غدت مموجة مُلاكة في بعض الأشداق ومنتشرة كالبراغيث في بعض الأوساط مرات يُضاف إليها - للتمويه - كلمة - مهمة رسمية حتى من أراد شراء لعب للأطفال يقال بهتاناً وكذباً وتظاهراً: ذهب لمهمة، يسافر لمهمة.. توجه لمهمة، وطالت غيبة أو اختفاء رشوان طريبقة».

وسأل عنه صاحبه الدائن له.. وقالوا له اطمئن، لم يصب بأذى، إنه أصحّ من ثور، وانشط من قرد، لا بأس عليه، خبزه مخبوز، وزيته في الكوز، واحتار «صادق الصديق» كيف يسترد ماله وهو مبلغ لا بأس به.

ولو كان المدين فقيراً أو بائساً مدقعاً أو مسكيناً مُترباً، أو مريضاً مُتهالكاً كان يمكن بحكم الوجدان والعاطفة أن يسامحه يعطف عليه - أو على الأقل يُقسط المبلغ أو يؤجل إلى حين ميسرة، فسحة إلى ميسرة شأن الأدب الإسلامي والتوجه القرآني في نُبل السلوك والتعامل بين الناس.

وبَعد المماطلة التي طالت تحير «صادق الصديق» ماذا يصنع، هل يشكوه!؟ هل يعفجه عفجاً، ويهبكه هبكاً!؟ هل يُشنع عليه، ويبشّع به عند الجيران وفي الحومة،هل يلجأ

للمجابهة والتوسط ويذهب إلى وجهاء قومه، وأعيان عشيرته أو زمـلاء المدرسـة يتـرجـاهـم أن يَفـضّـوا حكاية الديون عند صـاحبـهم «رشـوان طربيقـة» لكن «من يطلع الجـرانه من فم الحنش».

وتكررت التوسلات والترجيات:

- يا سيدي الله يخليك ويطرح البركة فيك أرجوك خلصني..
لكن ما يسمع منه إلا الكلام الزين واللسان الرطب ومواعيد عرقوب.

- حاضر، صبرك بالله - إن الله مع الصابرين .

- أي صبر.. فاض كأس الصبر، طفح الكيل أما سمعت أغنية «أم كلثوم - للصبر حدود».

- اصبر نخلصك.. حقك مضمون.

- ماذا انتظر، طمنّي. هل عندك تجارة بضاعة، موسم زراعة. هل عندك في البحر وسقة مركب والا في البر شدات في قافلة. قـال أحـد الأصـدقـاء من أهل الظرافـة واللطافـة مطمـئنًا صاحب المبلغ، صادق الصديق.

- انتظر.. ربما يرث جده الثري.

لكن جده لفع شين، شـاد روحه لا بأس عليه ربما «رشـوان

طربيقة» يموت قبل جده ويضيع المبلغ، لا سند ولا وصل، ولا حتى شهود.

- يا سيدي، الله يحفظك ويرعاك ويفكرك بالشهادة عند السياق والممات إن شاء الله تجيك خفيفة، يا سيدي تقسطوا المبلغ بالشوى.

وأجاب بإسلوب المطمئن الواثق.

- لا. لا تنزعج.. لا تحرق دمك الله يرحم بوك وأمك.. كن على ثقة، أخذتهم منك دفعة واحدة، تاخدهم مني دفعة واحدة ومعاهم بوسة والا بوستين.

أجاب صادق الصديق الذي مل من المماطلة والتسويف:

- لا.. يا سيدي وفر قبلاتك وبوساتك يلعن أبو البوس وأهل البوس إن كان بهذا الشكل أصبحت القبلات باردة ركيكة، فقدت طعمها وأثرها يستعملها كثير من أهل النصب والاحتيال والدجل، النصابة والقفاصة والتلتالة ومساح الخوج وقلاّل الملّة والدين.. لم تعد في كثير من المعاملات ذات طعم ولا علامة شوق وصدق.



ذات مرة، وقد عثر به أو عليه صدفة.

- اطمئن في الموسم يكون الخلاص.

وفرح صادق الصديق. ثم كتم فرحته وسأل:

– أي موسم..! وما علاقتك بالمواسم!؟

– موسم الكرموس وهو على الأبواب.

– أنت زارع «كرموس» تين!؟

– لا.. لا شجرة ولا كرمة.. إنما هناك ولد عمة خالتي حناى.. رجل زنقيل لا بأس عليه مزارع عنده كرمة وأنا نأخذ منها «كرموس» هدية.. ونخلصك في فلوسك– إن شاء الله.

– ومرة أخرى في مماطلة قال:

– إن شاء الله نبيعوا الزيت واخلصك.

– أي زيت عندك معصرة!

– لا.. لا معصرة ولا قرقابة زرعت زيتون بالشركة.. بعد عام عامين يولد الزيتون ونلقطه ونعصروه.. وتخلص في حقك.

وضحك صاحبه قائلاً..

– ربما لا هو زيتون.. ولا زيت بل هو كمون مثل ما قال الأولون: عيش بالمن يا كمون، ولا يوجد أكثرمن معاذير تلفيقات المماطلين والمُرجِئة.. والمرجئة هنا في هذا الحجم والسياق.. ليس ذلك المذهب في الفكر والاتجاه لدى علماء التوحيد إنما مرجئة من نوع آخر.. معاذير.. وَحُجَجْ أشكال

وأنواع.. اكتسبوا خبرة صفاقة بالمداهنة والمخاتلة.. في الاختفاء والتواري والتهرب وتَعب «صادق الصديق» حاول أن يَرد فلوسه بكل وسيلة لكن هاتف «رشوان طربيقة» لا يرد أو عاطل عن قصد، باب بيته لا يُفتح جرسه صدئ.. لا صدى به.

ونصحه ناصحون ودبّر عليه مدبرون..قال بعضهم ومنهم الشحيح حلتوت:

- أدعى عليه، سخطة تأخذه.. إن شاء الله ما يكمل عامه إن شاء الله تجيه غُده والا فدّه يقعد يلهوت.

وأجاب حكيم العاقل .. وهو زَميل دراسته مثقف:

- لا.. ياسي الصادق.. لو قبلت ملائكة السماء كل دعاء البشر على بعضهم لفسد الكون وتدمّر في ساعات.. وهناك حكمة يعلمها الله الخبير العليم مدبر الكون، ثم إن الدعاء المقبول من أهل الصلاح والتقوى - ويبدو أن ذلك النوع من الصالحين انقرض.. أو هو قليل ذلك الصنف.

- لو أقسم على الله لأبّره -

وقال حكيم العاقل لصاحبه صادق الصديق:

- فلنفرض جدلاً وتصوراً إن الدعاء من قلبك المكلوم كما اقترح الشيخ حلتوت استجابت له الملائكة ما يفديك إصابة

صاحبك بغدة أو بفدة أو بسكتة وسخطة هب استجابت الملائكة ما يفيد ذلك وفلوسك وديونك عنده.. المهم أن تعود إليك النقود، أو جزء كبير منها...

وتكاثرت الاقتراحات.. وطرح الحلول، قال بعضهم: نعمل مصالحة، ورد صادق الصديق:

- سبحان الله فلوسي- ونعمل مصالحة!؟ كيف هذا في شرع منه يا ناس رزق الدنيا حار عرق جبيني.. فلوس ضناي.. صغاري لو يموت غدوة أهله والورثة ما يعطوا شئ سبحان الله.. عيني عينك.. قْفَاصه نصابه أنا بيدي عطيتهم.

- لا تحزن لا تحرق أعصابك على فلوسك صحتك أولى..

وقال الشيخ حلتوت.. خبير بالأموات وصنوف الذاهبين.. قال وهو يتوحوح:

- هوّن عليك.. كل بن أنثى وإن طالت سلامته لا بد يوماً على العنقاء محمول.. هناك من تحصرم.. وشهق شهقة طلعت روحه مع الشهقة.. وكان أصّح منك.. مسكين شيعناه في يومه.. تحصرم.. انكمد شهق في الصبح صلينا عليه عند العصر.. الروح مشدودة بخيط عنكبوت.. ومرات أرق من خيط العنكبوت..

وذهب ليشكوه لأمه - وهي امرأة طيبة صالحة فيها شئ من الشهامة والنبل وحشمة جيلها وإن كان ولدها «رشوان طربيقة أساء إلى سمعة الأسرة، واعتذرت أم رشوان وقالت للدائن الشاكي:

- حَشمنا ما في عيلتنا نصّاب ولا قفاص.

وفوجئ الرجل الشاكي بأن المرأة تمد يدها إلى دبلجها وإلى عنقها وقدمت للشاكى الباكي المطالب بدينه.. الدبلج والعقد قائلة:

- اسمع يا ولدي صادق.. هذه الصيغة خذها وأخلص في ديونك وإن ما سّد هذا تعالى خذ الخلخال اللي في رجلي وبعض الأكلمة من الدار.. خذ الصيغة واخلص في ديونك وخلّي الأمر سراً لا تنشره بين الناس.



لكن صادق الصديق عندما رأى من الأم موقف الشهامة والحنان والحيرة والارتباك قال:

- لا.. والله يا عمتي ما تخلّي يديك بلا ديلح ورقبتك بلا كردان.. توا راجيه لعل الله يهديه.

واقترح أحدهم نعملوا ميعاد.

صحيح كانت ظاهرة مجلس الميعاد تحل بعض القضايا بين الناس وتفصل في الخصومات بالتفاهم والتراضى والإقناع

وبالتي هـي أحسن.. عندمـا كان هـناك في الناحـيـة أو المنطقة كرام من القوم ورجال من ذوى الحـيـثيات لهم وجاهة.. وجاه لهم كلمة مسموعة ومكانة مرموقة.. ونظرة واعية مع أصالة وقيمة.. يرضخ الناس لأحكام الميعاد بدل الجرجرة للمحاكم، واستفحال الخصومات وتوراث الأحن والعدوات.. لكن مع مرير الأسى ظاهرة.. الميعاد تلاشت أو أصبحت نادرة قليلة في بعض المناطق.

ثم لو حصل «الميعاد» هذا.. «رشوان طرببيقة» لا يخضع لما حكم به وجهاء القوم وتربس الميعاد ركب رأسه، أو ركب مثل غيره موجة النصب والاحتيال .. ما الفائدة.. والعائدة على صاحب الديون.

وفكّر وقدّر وَدَبر: في أن يضرب هذا الزئبقي الملعون على أم رأسه ويافوخه: ويهبكه هبكًا ويفشخه فشخًا ويعيد حكاية (شرع مهيري) الذي أخذ حقه.. واسترد ماله وأظهره بضرب الناكر النصّاب.. لكن ذلك.. زمان: في حكاية شعبية.. غدت مثلاً يُروى وطُرفة تذكر من سهر المسامرين.. وحكاية الحكائين.

ثم حسب حسبانـًا آخر قد يقابل رشوان طرببيقة الخبطة أو العكفة بما هو أشد وأنكى وقد يحدث له عاهة، أو ضررًا

أكثر.. ثم تتوارث الخصومات بين أسرة صادق صديق وبين أسرة رشوان طربيقة وتظل حكاية الخصومات إلى ولد الولد. يا لها من وحلة، تعطي مالك.. وتظل تفكر كيف تسترد بالتي أحسن وأقوم أو بالتي هي أوحش وأفحش.

هؤلاء النصابون المماطلون بتصرفاتهم منّاعون للخير.. يتوب أو يمتنع الإنسان صاحب المرؤة والفضل عن تقديم الجميل من تصرفات ومناكفات أمثال هؤلاء، كما قال حلتوت، وهو يهز رأسه كالبندول:

- صحيح يكرهونك في صنع الخير وتقديم المعروف والجميل وإغاثة المستحق الملهوف وردد مقطع أغنية مغربية قديمة:

- يا سلاك الواحلين.

حقيقةً الديون مع مماطلة المديونين وحلة ما بعدها وحلة، ويقول له بكل برودة أعصاب:

- اصبر حقك في الحفظ والصون مضمون.

- في الآخرة أو في الدنيا يا تُرى!

حاول المجابهة والترجي والتوسط من أصحاب الطرفين.. ولا فائدة. . ولا عائدة، أتذكر سلف الماء للجابية!

أيشكوه في المحاكم، وهناك فعلاً قُضاة من أهل النزاهة،

والحفاظ على القانون، ولكن قد تطول بحكم «الروتين» الأوراق وتكدس ملفات القضايا والشكاوي، ولا يصدر ما في صالحه إلا بعد لأي، ثم إن السندات «كمبيالات» لا توجد لديه، وقد يتمادى في مماطلته هذا «الزلفوت» «الزقطى» هو من نوع لا يعطي حقاً ولا ينكر – وجه «زينقو» لسان حرير، وفعل مرير، ومرت الأيام، وكرت وتطاولت. قال الصادق لصاحبه حكيم العاقل:

– دبّر معي الله يخلص وحلتك يوم الهول الأكبر، ريقي نشف، راسي دار، دُخت وأنا حقيقة في حاجة لفلوسي.

وتدخل «حلتوت» متطوعاً بالاستيضاح والتساؤل!

– زعم هو عروقه في الما!؟ هل أمه في الحوش!؟ عنده كتوف!؟

وَرَد الذي يعرف شيئاً من الحقيقة:

– يا شيخ «حلتوت» لا عروقه في الما ولا في الطين، ولا حكاية أمه ولا أبوه، هذا كذاب زلفوت، النصّابة يعملوا حولهم هالة بالادعاء.

وتدخل حكيم العاقل قائلاً:

– أنا أقول لك، لا دراع ولا مسواق. بل بالحكمة تأخذ فلوسك، على داير المليم.

أجاب صادق الصديق صاحبه قائلاً:

- على ايدك نحجّوا.. يا سيودي كيف!؟

وطلب حكيم العاقل مهلة أسبوع أو بالكثير مدة عشرة أيام.. وهو هذا المماطل المدين سيأتي بنفسه بكل المبلغ اللى عنده وتأخذ فلوسك عَداً ونقداً، وإن ما أخذتم منه يغضب عليك ويزعل منك، وربما رماهم على وجهك أو تحت أقدامك وفتح صادق الصديق عينيه مندهشاً وفغر فاه مشدوهاً.. يكاد ألا يصدق هذه المفاجأة غير المنتظرة.

- يأتي بفلوسي إلي عندي.. المبلغ كاملاً غير منقوص!؟ هو أنت ناوي تسحره!؟

قال حكيم العاقل بهدوء وتثبت:

- يا أخي ما في سحر في الأمر أنت تصدق أشياء شغلت أذهان العوام والجهلة والسذج الحكايا هنا تشغيل مخ.. خطة.. فكر.. دبارة.. أما سمعت «اللي توحل فيه دبّر له» الموضوع.. مسايسة.

قال صادق الصديق.. بارك الله فيك.. صحيح يضع سره في أضعف خلقه، ويأتيك بالأنباء من لم تزود

- 2 -

وذهب حكيم العاقل، إلى «رشوان طربيقة» ومد يده مُتهللاً، مكررًا في نبرة فرح عارم.

– مبروك.. مبروك.. الحمد لله..

– آش فيه..

– الرجل المناسب في المكان المناسب، انت بن بجدتها.

– يظهر إنك غلطان في اسم أمي.. لم يكن اسمها بجدتها.

– يا أخي افهمني أنا جئت اهنئك الرجل المناسب صحيح أنت مناسب.

وقف «رشوان» في حيرة من هذه الزيارة المفاجئة والتبريكات الحارة ومن زمن طويل لم يسمع تبريكات.

– أنا مناسب مناسب من!؟ أنا عقيم كيف أناسب.. أنت غلطان.

– مناسب في المنصب الجديد.. عندك حظ لكن خليه سرًا مكتومًا بيننا حتي يعلن بصفة رسمية احذر أن يتسرب يضيع منك المنصب مكتوب في التوراة، وجلجامش والألياذة والأوديسا، وملحمة عوج بن عناق استعينوا علي قضاء حوائجكم بالكتمان.

«ورشوان» بطبيعة الحال لا يعرف هذه المسميات والعناوين، الألياذة والأوديسا وجلجامش، يظنها محطات فضائية، أو هي

أنواع وطرز من السيارات الجديدة. أو يظن جلجامش شريطًا ملونًا، كما أن الكلمة المأثورة أو الحكمة المتداولة أضافها إلى هذه العناوين هازئًا ساخر من عمك «رشوان طربيقة».

وفوجئ «حكيم العاقل» عندما قال له رشوان طربيقة :

- صحيح عند قضاء الحاجة لازم من الكتمان لأن الأنسان المهذب لا يتبول ولا يطرطر ولا يتغوط إلا بالسر والكتمان، وسد باب المرحاض والكنيف صدقت الكتمان شيء لازم ظانًا أن الحاجة التي أشار إليها هي التبول والتغوط وما يتبعه.

وحاول حكيم العاقل - أن يشرح له الحكمة المأثورة وليس هذا ببيت القصيد الذي جاء مهرولاً من أجله، بل بشرى المنصب الجديد والمركز الذي هبط عليه.

- أي منصب يا أستاذ حكيم العاقل!؟

- هناك إشاعة، لكن هي حق مثل ما كانت تقول جدتي «ما قالت طق الا وهي حق» الوزارة ساعية إليك يا سي «رشوان طربيقة».

- صحيح - حق - من قالك!

وقال حكيم العاقل لصاحبه وهو يسانده مخافة أن ينهار من شدة الفرح.. ويربت علي خده:

- راك تموت من الفرح هناك من قتله الفرح هناك من قتلته الفرحة المباغتة وهناك من يقتله الحزن أو الصدمة والإنسان هكذا بين شقي الفرح والترح بين الكآبة والمرح.. لكن إنت صديقي من الصيوده و «فحل» من الفحولة.

- أنت قدها وقدود.. واقترب من أذنه كأنما يهمس إليه إياك أن تنسانا مثل كثير من أصحاب الوزارات والمناصب - إيه يا بابا - مثل ما قالوا: لبس الكتان ونسى ما كان.. نسوا أصحابهم.. مبروك وإن شاء الله يطول المنصب.. آهو أنا أول من حمل إليك البشرى.. ونريد زردة وحفلة يرقص فيها حتى الشيطان زقطاط.. مبروك.

- ربما مجرد أشاعة هو أنت متأكد يا صاحبي؟

- قلت لك أنت مرشح للوزارة.

قال رشوان طربيقة:

- إن شاء الله وزارة فيها هبرة ولا وزارة منتفة على الحديدة والأعلى الأحمر.

- زعم الخزينة.. والا وزارة المجاري.

قال حكيم العاقل ناصحاً رشوان طربيقة:

- اسمع يا صاحبي: لابد من تغيير السيارة آخر طراز..

وزوّق حـوشك. لا بـد من الزواق واشـري أثاث جـديد.. ولا تجلس في المقاهي الشعبيـة.. ومد بـوزك.. وطرّم.. ماعادش تضـحك وتتـبسط مع الناس.. وخـاصـة الرديف والزواليـة وفصل بدله جديدة.. واشري بساطًا عجميًا ولا تقضي ولا تشري حـوائجك من السـوق بروحك ورفع إصـبـعه السـبـابة مـحذرًا ناصـحًا.. رد بالك خـذ حذرك .. كن فطين.. إذا أحد انتـقـد أو شـتم الحكومـة أو مـسـهـا بكلام اهـرب واعـمل مـاسـمـعت شيء، ولا تـدخل مسـرحًا ولا ترتاد سـينمـا، ولا مكتبة، ولا تحضر محـاضرات ولا ندوات ولا مناقشات علمية وفكرية.. اعمل نفسك من أهل الأبـهة.. خليك بـعيد.. بعيد.. فـوق، فـوق جـاءتك الوزارة يا حظك لازم أمك داعيـا لك والا عمتك منَّانَة السلوقية.

- لا.. مرات تدعي عليّا.

- قلب الأم حنون. لازم داعية لك.

وفعلاً جرفته نشوة الفرح وطبق ما أشار به واقترحه صاحبه حكيم العاقل وجلب الأثاث الجديد.. وظل يمشي مشـية المتفحج ولوى بوزه ، وطرّم وبلّم، وما عاد يكلم زملائه الا بمقدار.. وغيّر من طراز السيـارة وطفق يتصنت الأخبـار.. ويتـصـفح الجرائد

وإن كـان ليس في أكـثـرها مـا يسـتـحق القـراءة وانتظر خـبـر تعيينه الجديد، وقد تكون مسؤوليته لوزارتين بدل وزارة.. ذو الوزارتين.. أو صـاحب بالين ورأى نفسـه أو مـرآة نفسـه شيئًا كبيراً.. زين كانوا غائبين عنه طول هذه المدة لكن كما كانت تقول جدته والشيخ بقدونس حكيم الزنقة.. المليح يبطئ.

وأعاد حكيم العاقل الحاحه وتوصيته:

- إياك تنسانا.

أجاب:

- لازم نعـينك مدير مكتب، أنت إنسـان مـثـقف ذكي، وأول من حمل إليّ البشارة.

قال حكيم العاقل متدللاً على صاحبه:

- مدير شوية رقينا أكثر.

- يا ودي وكيل نخليها لولد عمي، وفكر فيمن يكون سكرتيراً وكـاتم أسـرار وأيضـًا سكرتيـرة غَنْجاء ملسـاء تثيـر خيـال الشعراء وتخبّل الوزراء وأصحاب المعالي والمغالي.

وبعد يوم أو يومين سأل صاحبه:

- من أين لك هذا.. كيف عرفت؟

أجابه:

- ماهو البلاد داقرة وأنا مغطاها ثم أنا حكيم العاقل مثل عمتك زازية عمية وتخيّط في الكتان وزحافة وتجيب الخبر كان ما كان، ثم ما تنساش ولد عمة خالة خالتي بصير ويشتغل في الهواتف وفي أذنيه رادار والخبر يحببنه الحطابات، اطمئني استعد..الوزارة جاياتك.. وأنت جايها مبروك.. راك تنسانا.

وظل «رشوان طربيقة» يترقب.

- 3 -

وذات صبيحة، جاءه حكيم العاقل باكرًا مهرولاً وهو يتظاهر بالتوجس والتخوف والتلهف قائلاً لرشوان طربيقة:

- اسمع أنا جئت لأنصحك، والدين النصيحة.

قال رشوان..

- خير إن شاء الله أنا دائمًا اتفاءل بمجيئك وأخبارك وكيف حال عمتك زازية ! ؟

وألقى في وجهه بهذه القذيفة المفاجئة:

- أنت في القائمة.

- أي قائمة.. فكنا الله من شر القوائم.

- قلت لك قائمة الوزارة الجديدة.

- وزير أي وزارة طمنّي..

قال حكيم العاقل في همهمة وغمغمة:

- يا أخي سمعت

وسكت هنيهة..

وهنا امتقع لون «رشوان طربيقة» وجف ريقه واجلوزت عيناه. وتدلت شفتاه، وقال حكيم العاقل:

- قالوا قبل ما يعلقوا اسم الوزير الجديد لازم من اتخاذ إجراءات التحري.. وتقليب الملفات وتوالي المتابعات والتحريات السريعة جداً كتمانية.

قال «رشوان طربيقة»: محاولاً أن يطمئن نفسه ويطمئن صاحبه:

- من هذه الناحية أنا سلوكي معقول ١٠٠٪ ١٠٠ لا أصفار ولا علامات استفهام ولا صلة لي بالمناكفات.. لا خبشة ولا دبشة ولا هفوة.

ووقع كلام حكيم العاقل على المتربص المنتظر كان ذلك مطرقة علي دماغه الأجوف الفارغ، قال له:

- ما يكون عنده سوابق ولا لواحق.

أنا أنصحك لأنه لا بد من التأكد من أن المُعينَ والمستوزر الجديد لا خصومة له ولا أحد شاكي فيه.

قال رشوان طربيقة:

- أنا عمري ما غمزت الحكومة ولا قرصتها أنا لساني مؤدب مهذب.. عمري.. حياتي ما اغتبت مسؤولاً ولا حتى قريب مسؤول.

- قلت لك لا بد المرشح في القائمة طاهر الذيل ولا شاكي فيه أحد.. أن يكون نظيفًا عفيفًا خفيفًا.. ليس مديونًا.

- وأنا من شاكي فيّا..!؟

قال حكيم العاقل:

- هناك خبر يتسرب قالوا في السوق إن صاحبك، أو صاحبك سابقًا، الصديق صادق، نصبت عليه شاكي فيك وأخذت منه مبلغًا لا بأس به لم ترده له، وهو بعد مماطلتك.. والديون التي طال عليها الأمد.. لم تخلصه هو قدم شكوى للمحكمة شكوى موثقة عاجلة وعنده محامي لبلب.

- الله يلعنه ولد النيفرة.. يشكوني ويشوه سمعتي!؟

- رد بالك الحيطة واجبة.. والحظ والفرصة مثل هذه تجيء مرة في العمر.. بادر.. انقذ روحك أخذت فلوسه تعتبر عند الناس نصابًا لو صدر فيك حكم والا مجلس تأديب أو كتب هذا في الصحف والا كتبته الجرائد وثرثر الصحفيون، والخصوم والمتربصون والحاسدون، تطير منك الوزارة..

كـرسي الوزارة هزّاز.. هل أنت عـبـيط خـايب يروح منك المنصب ثم تغـدو سـخـرية بين الناس، لا حـول ولا قـوة إلا بالله..، هل صـحيح أخذت فلوسـه وما رديتـهم، عندك فرصـة ياهبل، يا هرواك يا ضـايع. بـادر بإنقـاذ روحك والدفـاع عن سمعتك قبل البهدلة.

قال «رشوان طربيقة»:

– لكن هذه معاملة وديون قديمة كيف أعمل، دبّر عليّا.

– المهم اسرع.. عجّل. قبل ما تطير منك الوزارة دبّر له فلوسه يلعن بوه واللي جابوه.

قال «رشوان طربيقة» وهو مرتبك:

– غدوة الصبح تكون عنده.

قال حكيم العاقل: أنا توًا نمشي له يسحب الشكوى.

– لا بلاش فضايح بيني وبينه نرده المبلغ وعليهم زايد.

– باهـي.. بادر.. أسـرع قبل مـا يعـملوا ملف وإعـلان الشـاكي لأجل أن تـكون أوراقك نظـيـفـة وربت علي وجـهـه المكفـهـر المضطرب قـائـلاً في أسلوب بين الشـمـاتة والسـخـرية والأمل البرّاق وتتبجبح.. يا مبـحبح.. يا محظوظ زي عمك بحبح في الأفلام.

- ورد «رشوان طربيقة» علي صاحبه قائلاً:

- صحيح إنك اسم علي مسمى، إنك حكيم وعاقل، الحمد لله تلافينا الموضوع.

- يلعن بو الفلوس اللي جابولي الكابوس.

ورفع حكيم العاقل أصبعه محذّراً مكرراً:

- راهو سر بيننا أي تسرب للخبر يطير منك المنصب.

- 4 -

في الصباح الباكر بعد أرق ليلة لم يذق فيها طعم النعاس ولا لذة النوم كأنما بات على فراش من الجمر أو وسادة من الشوك بعد شروق الشمس بساعة إلا خمس دقائق كان رشوان طربيقة يدق باب صديق الصادق، دافعًا له كل ما يطلبه منه مع رسالة شكر.. وقبلة مصطنعة باردة وعاد أدراجه يتصنت نشرات الأخبار، ويتلصص الشائعات ويقلب الصحف منتظراً وزارة لن تسعى إليه.

صلعة في روما

مازال يطمع في علاج صلعته، وعودة الشعر المتكاثف عن طريق الطب الحديث لا عن طريق الوصفات الشعبية أو تجارب من كتاب «الشفاء من كل داء».

لقد عثر على كنز - ومن شدة الغبطة والفرح لم يستقر رأسه على الوسادة طوال الليل حتى انتابت زوجته مخاوف أن يكون بعلها الطيب الكريم وقع في غرام جديد واصطادته واحدة من إياهن من الصائدات الكثيرات المتلوعبات الناصبات شباكهن هنا وهناك.

ولكن الرجل كان مشغولاً طيلة ليله ونهاره في بؤرة شعوره.. وما تحت شعوره بموضوع جد خطير؛ حكاية التغلب على صلعته، لقد عثر على كنز صديق من أعز أصدقائه دله على اسم وعنوان طبيب في إيطاليا.. مخترع.. مكتشف يعالج الصلع يعيد شعر الرأس إلى موضعه غزيراً.

وتوجه إلى مبنى جوازات السفر وزاحم في الطابور - كان ذلك قبل أن يكون السفر سهلاً ميسراً - وذهب مسرعًا متلهفًا إلى إيطاليا يعرفها وخاصةً روما يعرف شوارعها كما يعرف الكاتب «ألبرتو مورافيا» شوارع وبنات روما، وكما يعرف بعض من الليبيين المتسكعين عديداً من الشوارع والأماكن هو

يعرف خاناتها.. بنسيوناتها.. خماراتها مطاعمها. ليست المرة الأولى التي يتجول فيها بروما، يعرف التراطن بلغتها مشافهة وإن كان لم يقرأ بها كتاباً ولا صحيفة أو مجلة محترمة، ماله ومال القراءة أو وجع الدماغ كما يقول الأميون وأمثال الأميين من أهل الوجاهة الكاذبة والمظاهر الخادعة، لكن هذه المرة لن يتسكع.. لديه هدف محدد أو هي مهمة خاصة، لن يضيع أوقاته في الملاهي والمشارب، والجري وراء النسوان وبائعات اللذة والنشوة والمحاسبة على ثمن الساعة أو نصف الساعة أم نصف ليلة أو ليلة كاملة، لن يثرثر مع بنات الرصيف والواقفات عند الفوانيس، لا وقت له للمعاكسات الرخيصة.. كان ذلك منذ سنوات لعله شبع.. أو ملّ.. الأهم أن يعالج صلعته ويعود إليه شعر رأسه بفضل هذا الطبيب الماهر، لن يضيع وقته في فرقعة زجاجات الشمبانيا والبيرة كأنها رغوات الجمل الهائج أو فقاقيع الصابون المتلاشي لن يسأل عن المتاحف والمتاجر والمعارض.

لن يهمه أمر المطربين المتسكعين الذين يتزاحمون على أرصفة روما.. أكثر عدداً وإلحاحاً من بعض القراء على المقابر في بعض البلدان الشرقية في غوابر الأزمان.

كل هذا لا يهمه ولا يشغل حيزاً من باله لديه مهمة محددة المثول أمام الطبيب النابغة الدكتور K.O.B حذار أن يضيع منه الاسم أو يتوه العنوان.

ومع إهماله للأرقام أو حفظ العناوين حافظ على العنوان وحفظ الرقم.. لن يتوه في روما.. مع كثرة التائهين بها، حذار أن يسقط حرف من الاسم أو يتداخل اللقب وأسماء الإيطاليين رغم أنها سهلة النطق إلا أنها تتشابه مثل أسماء إخواننا الروس وإن كان آخرها... خوف.. وإن كانت أصعب، طبيعي اسم الشارع حفظه جيداً ورسمه في خريطة أو بالأحرى عَلَّم مكانه على خريطة اشتراها من أحد الأكشاك للمبيعات السياحية.

السائق الملعون إيطالي ثرثار.. طرطار يسرع في الكلام وينطلق بسرعة جنونية كأنه في سباق ضاق وقته كأنه سائق لبناني تاه في روما، يسرع ويتحدث في كل شيء ويدعي المعرفة في كل شيء ويسأل السؤال التقليدي بفراسة السائقين المحترفين.

- سنيوري إنت من الشرق .. آربو.

- نعم من طرابلس... تريبللي.

– أوه.. بيللو تريبللي.. بابا كان في تريبللي أيام بالبو.. عندي أقارب هناك.

– راح بالبو وحكومته.. أصبحت بلادنا حرة.

– هل أجد عندكم عمل.. تريبللو فلوس كثير خير كثير.

– ماذا تريد أن تعمل السواقين عندنا كثير وماهرين.

وقال المثرثر الملعون:

– افتح كباريه أو بار، اجلب بنات من روما ونابولي وسيشليا يرقصو في مسرح الميراماري.

– الميراماري تهدم من زمان، وبالقرب منه مربط عربات الخيل للسواح.

وزم ثم قرقر والتفت السائق الأهوج يمنًا ويسارًا، عطس عطسة قوية يبدو أنه مصاب بالبرد ابن الملعونة، واغمض عينيه تصور سائق يرمش ويغمض عينيه أو عين واحدة واخرج منديله ليمسح جبينه والسيارة تدور متخبطة في شوارع روما تكاد أن تنقلب أو تصدم سيارة أخرى وعندما حذره ونبهه أجاب بلكاعة أهل نابولي:

– ما تخافش أنا أسوق أكثر من عشرين سنة أنا سواق وبوي

سواق وجدي ساق مع الدوتشي.

- أكثر من عشرين سنة سواق في شوارع روما لازم يركنوك أنت والسيارة هي في الجراچ وأنت على المعاش أو في ملجأ.

قدم إليه عنوان الدكتور ليكبح من ثرثرته وأخذ السائق يتفرس في ورقة العنوان بعد أن لبس نظارته العتيقة وهرش قفاه الغليظ..شارع.. وهز رأسه وزعم أنه يعرف الدكتور وقفز إلى سؤال مباغت من غير مقدمات:

- سنيوري.. أين تسهر الليلة.. هل جئت بالبحر.. معك السيارة أم بالطائرة، أين تنزل، كم ستمكث هل عندك دولار أنا في خدمتك أنا أحذرك من السماسرة في روما.

المهم أين عيادة الدكتور ما زال يطوف الشوارع والميادين والأزقة.. والملتويات وحتى المسارب والأزقة بها التماثيل والمنحوتات والنوافير والمتسكعات المتربصات.

لقد أدرك أنه وقع في مصيدة نصاب مراوغ، يتحمله قليلاً المهم أن يصل إلى مبتغاه ويعالج صلعته التي نغص عليه استفحال حالها.. سيعود إليه تألقه وورنقه، لكن يجب أن يفهم هذا أنه أدرك تحايله وغشة ولم تنطلي عليه أساليب تحايله

ترى هل سواقين العالم هكذا باستثناء سواقي لندن وباريس.

- يا سنيور! أنت مريت من الشارع هذا مرتين.

- سي سنيوري.. ندور لأجل علامات المرور.

وبعد تطواف جف فيه ريقه وخشى من المبلغ أن يجف جيبه

- هذا هو عنوان الدكتور.

لوح السائق بيده مطلقًا عبارة تشاو.. أرفَيد تشي.

- الدور العاشر شقة 2 هكذا تفحص العنوان في اللوحة المثبتة عند الباب وتوجه نحو المصعد.. كان معطلاً أصيب المصعد بأزمة عضلية... اف... اف قال حارس العمارة أنه لم يتعطل إلا منذ نصف ساعة، لو لم يثرثر الملعون ويتوه به في الشارع والأزقة كان يصل قبل عطلة المصعد كان وفر عليه صعود عشرة طوابق. قال له الحارس:

- مهلاً.. سيصلح المصعد بعد ساعة.

وهل يصبر منتظرًا ساعة أو أكثر قد يفوت موعد الدكتور.. قد تزيد عن مائة وعشرين درجة لا بأس الصعود أصعب من الهبوط.

الحمد لله لم يتعطل المصعد وهو في وسطه وهو محصور مأزوم يكاد يطرطر، وتصابر لعن الله البرد ومشارف الكهولة

خلق الإنسان ضعيفاً وصعد لاهثاً.. لعن الله الدخان والسهر وما بينهما وتفرس في اللافتة بخط بارز مقروء.. الدكتور... دلف إلى الردهة، وانتظر مع المنتظرين، وتفحص بعينه متسائلا في دخيلة نفسه: أكل هؤلاء الجالسين والجالسات أهل القيافة والوسامة جاؤوا لعلاج شعر رأسهم! هؤلاء شعرهم غزير لكن الكل في نظراتهم نوع من السهوم أو الارتباك هل هو من الملل وطول الانتظار يجوز.

هل تنملت جفونهم مثلما تنملت أقدامهم فسرى القلق والملل على وجوه بعضهم.. لم يمد يده على المنضدة الصغيرة.. إنما قلب النظر في وجوه هؤلاء الجالسين والجالسات.. وإن كان بعضهم عادي الجلسة والنظرات يبدو أنهم من القادمين معهم المصاحبين لهم شأن المترددين على المشافي والعيادات.

صامتون.. لا يجد تفسيراً لا ابتسامة.. لا همسة لا تلويحة باليد.. عجباً.. طلاينه في جمع صامتون.. ساكتون لعلها أوامر الدكتور.. سيلنسيو خاموش.

شبان في عمر الزهور وفتيات يلبسن سراويل آخر طراز لكن لهن شعور طويلة وليست جرداء بلقع كرأسه الملساء شعور مسترسلة هائجة كدراويش من أصحاب البنادير قديماً..

وبعضهم شعره المستطيل مثل الخنافس وجماعة الهيبي حديثاً. بعضهم شعر رأسه ممشط بعناية مثل هياكل والتماثيل المنحوتة للقدامى، يبدو أن صالونات الحلاقة تستوحى من التماثيل الرومانية أنواعاً من العناية بالشعر.. تسريحات وموديلات.. لم يطق هذا الصمت الكئيب الممزوج بالقلق لحظات الانتظار للمثول بين يدي الطبيب ومبضعه شئ متعب مثل انتظار أسئلة الامتحان أو نتيجة الامتحان، وسأل جاره في المقعد ليزيح كابوس الصمت:

- بالفائوري.. سكوزي سنيوري هل يقوم الدكتور بعلاجه.. ؟!

وأجابه بكلمة مقتضبة كأنها جواب برقي.

- سي.. سي.. نعم.

وجهه إليه سؤالاً مستوضحاً.

- هل أطال الدكتور شعر رأسك.!

واستغرب الرجل السؤال ولزم الصمت، لكن عيناه لم تصمتا، ثم وجه سؤالا إلى جالس آخر كان قد صحب أخته عرف أنها أخته من الملامح وله فراسة في الملامح والسحنات لا تخطأ إلا قليلاً:

- أنت من زبائن الدكتور منذ زمن!؟

وإن كان الأول أجاب بكلمة نعم وحرك شفتيه بكلمة فهذا اكتفى بهزة رأس، واسترسل قائلاً ليحطم الصمت الكئيب:

- الدكتور له سمعة وشهرة حتى خارج إيطاليا، والصحف تكتب عنه... أنه دكتور عالمي وسمعت أنه مرشح لجائزة نوبل.

قال هذا وإن كان واثقاً إن جاره الجالس لا يعرف لا نوبل ولا توبل إنما آهو جر كلام، وقام ليسأل الموظف القابع في ركن يسجل الأسماء ويعطي الأرقام.

- سنيوري كم يستغرق علاج شعر الرأس؟!

ورمقه أو رشقه بنظرة استغراب وأجابه قائلاً وهو يسلك غليونه.

- حسب الظروف هناك من يشفى في ثلاثة أشهر وهناك من يمكث عاماً تحت المراقبة والمراجعة وهناك حالة خفيفة وصدمة بسيطة أسبوع.. وهناك من حظه طيِّب جلسة واحدة.

- وهل العلاج عن طريق جلسات!

- على حسب الحالة والحاجة وقابلية الدما غ.

- حاجة حالة قابلية.. ايش هذا؟

- إيه هناك من يعالج ثلاثة أشهر وتواتيه الحالة مرة أخرى.. لكن الطبيب هذا حاذق يمكن أن يحاصر الحالة، صنع هذا مع الكثير من المشاهير في الرياضة والسينما والمسرح وزراء وأصحاب ثروات بترولية وحتى أوناسيس المليونير اليوناني تردد علينا في آخر عمره بعد زواجه من أرملة المرحوم كندي.. وهذا رقمه في العيادة..

وأبرز له رقماً من درج ويعلم الله لمن كان هذا الرقم لكنه رسخ الحيرة والتساؤل عند الباحث عن إطالة شعره وزرع صلعته اللامعة.

وتحسس دفتر الشيكات العملة الصعبة هل تكفي وتغطي مصاريف ثلاثة أشهر حتى يعود بشعر طويل.. وَوَجَّه السؤال للموظف المسجل:

- ألا يوجد عند الدكتور علاج مستعجل!؟

- حسب الظروف وجدول الزبائن هذا موسم مزدحم.. وخاصة المصحة الخاصة الممتازة.

وجاء دوره في الكشف المبدئي.

هناك مساعد الطبيب يقدم له استمارة لا بد للزبون أن يملأ الخانات.

لا بد من الإجابة عن الأسئلة، وجلس أمامه.

- الاسم.. اللقب.. العمر.. الوزن.

- العادات.. الهوايات كم ساعة تنام؟

- هل يصيبك الأرق في الشتاء أم الصيف؟

- هل تخاف من الظلام والرعد والبرق؟ أي الألوان تفضل؟ على أي جنب تفضل النوم؟ هل تنام بعد الأكل مباشرة؟ ما نوع الأحلام التي تتكرر؟ هل تشعر بكابوس إذا رأيت ثقيل الدم؟ كم مرة تدخل السينما في أيام العطلة؟ هل تتشاجر مع زوجتك كثيراً؟ ما هي أكلتك المفضلة؟ هل تمزق قميصك عندما تغضب؟ آخر طبيب عرضت عليه حالتك! أنواع الحكايات التي كانت تحكيها لك أمك في صغرك أو تقرأها لك إن كانت قارئة! هل عندك أزمة في حكاية الجنس!؟ أو لا قدر الله مصاب بعجز أو ضعف؟

أسئلة منوعة غريبة لا رابط بينها ما علاقة هذا بموضوع تتطاير شعر رأسه، أم هو العلم والفحص تطور بشكل يعجز الإنسان عن فهمه! وسؤال آخر.. حيره.. هل فشلت في الحب هل صدمت سياسياً أو عاطفياً؟

أجاب عن بعض الأسئلة وترك البعض وقدمها للموظف الذي سيدخله على حضرة الدكتور وعندما قابله وجلس إليه بدأت الأسئلة المشافهة تنهال عليه كرزاز المطر ثم أخذت تتهاطل أو كأنها طقطقات مقص حلاق محترف متوالية بدون راحة واسترواح.

ما أتعسه في هذه الرحلة التي حاصره فيها الثرثارون من السائق إلى السنيورة صاحبة البنسيون إلى فتاة الرصيف التي تساومه ويساومها، حتى صاحب المطعم والطبيب... خليّة نحل تطن، سؤال أثار أعصابه.. بكل بساطة ووقاحة ألقى السؤال:

– هل يوجد في عائلتك معتوه أو مجنون أو متخلف أو عبيط أو درويش.

– لا أنا عاقل عائلتي محترمة من أعقل الناس أمام الناس على الأقل.

– هل عندكم في المحيط الذي عشت فيه مشاجرات ومناكفات!

– قد تكون مشاجرات عائلية كأي عائلة من البشر تعيش على الأرض.

– لماذا تتشاجر عائلتك!!

وقال بعد أن صمت لحظات.

– في نفسه أما طبيب أهبل أما سؤال بارد.. هل أنت طبيب يداوي أم محقق من أهل الرغي والرغاوي.. هذه أسئلة خصوصية ما علاقة هذا بصلعة رأسي.. يا حمار..

وقالها بالإيطالية ازنُو.

وقال في سره بدون أن يسمعه:

– لا هو ليس حماراً ولا ثوراً ولا بغلاً ربما أكون أنا الحمار لأن العلم تقدم.. قد تكون هناك صلة بين جذور الشعر في الرأس وجذور عائلتي، وفي الشجار قد يشد الإنسان شعر رأسه.

– هل شد شعر رأسه له علاقة بالصلع يا دكتور..

وربت الدكتور على كتفه بلطف.. وابتسم ابتسامة لينة وهز رأسه قائلاً:

– بيلو.. بيلو.. حسناً حالة بسيطة غير مركبة أنت غير سوداوي.. ولا بلغمي.. أنت مرح.

ثم بحلق في عينيه، هل يريد أن ينومه مغناطيسياً.. وعندما فلت الدكتور عينيه فتح هو أيضاً عينيه عن آخرهما.. ويذكر كلمة عمه الكبير وكان العم من قبضيات باب البحر لا تكن

عينك مرخية عندما يفنص فيك أحد إذا فتح أحد الناس عينيه لا تسبل عيونك. أكد عمه الكبير أن الجبان والفاسد من يرخى عيونه... يلعن أبوك يا برفسور جئت للعلاج دوختني بأسئلتك هل نحن في مسابقة أو رهان؟!

وتقدم الدكتور بمطرقة خشبية صغيرة وضرب ركبته كاد يركله أحسّ بالألم وعنف الضربة المفاجئة ثم غاص في أسئلة سخيفة.

– هل أصيب أحد أقاربك بقرف أو انحراف مزاج أو انحراف آخر.

– ايش تقول يا قليل الأدب.

وفرغ صبره وهو يقول: أنا أريد حقنه من المادة التي اكتشفتها من دوائك الساحر الذي يُنبت الشعر في الرأس.. أريد شعري الطويل الأسود وقال له:

– اجلس مسترخيًا على هذا الكرسي.

وسأله.

– ما اسم هذا اليوم!

– الاثنين.

– كم في الشهر.

– عشرين بقى سبعة أيام ويقبض الموظفون!

- كم الساعة الآن!

وقال في نفسه مواصلاً اللعنات ممزوجة بالاستغراب: الله يخرب بيتك سنيور ملعون في ايدك ساعة ولديك ساعة في الحائط.. وساعة في المكتب وساعة أخرى على المنضدة.. وفي الردهة بالممر.. وتسأل الساعة كم؟ يا بارد.. أهو خليني من تداخل الأسئلة.. الساعة الآن سبعة ولي ساعتان في الأسئلة ما أطول روحك هل قطعت المسافة من طرابلس إلى روما لأجل تدفق الأسئلة السخيفة لو أرسلتها بالبريد كنت أجاويك ووفرت السفر والمتاعب والتكاليف..

وواصل الدكتور أسئلته.

- ما اسم هذا البلد؟!

روما المدينة التي أحرقها نيرون والدوتشي والنيرويون ظاهرة وسلسلة لا ينتهون في تاريخ البشرية لكن المنورون ينتهون أو يصابون باليأس في بعض الأحيان.

ترى ما علاقة الأسئلة بعلاج شعر الرأس وأبرز الدكتور للرجل المستقلى على الكرسي متلقياً الأسئلة.. ورقة التعريف.

ولمح، اذهله.. felete طبيب الأمراض العصبية.

- ايه يا دكتور أنا عاقل اتمتع بقواي العقلية تامة.

وأجاب الدكتور:

- صحيح يعتقد كل الناس هنا وزبائني يزعمون هذا لكن العلم.. فوق المجاملات والإنكار.

- لكن أنا جئت من أجل علاج الصلع أريد إطالة شعري.

دفع آلاف الدولارات على أسئلة لا تتصل بعلاجه لقد أخطأ الاسم واللقب. وهرول إلى السلم وهو يلعن الخطأ والالتباس الذي وقع فيه.. أخطأ العنوان بفضل هذا السائق الثرثار وقفز في أول سيارة أجرة وتفرس في العنوان الذي في يده.. وتأكد من الاسم والعنوان.

وعندما وصل إلى العيادة.. قيل له إن الدكتور الخبير المشهور هذا مكان عيادته لكن هو الآن في رحلة خارج روما سيحضر أحد المؤتمرات العلمية وسيذهب بعدها لزيارة عملية في ليبيا ولا بد حجز المقابلة والدفع مقدماً..

وانتظر شهراً في روما..

وحاول أن ينسى مشكلة الالتباس الذي وقع فيه مع الطبيب وأخذ يقص حكايته على أصحابه المتسكعين في فيا فينو

وقصها مع شئ من التوابل والبهارات والضحكات مع المرأة التي اصطادها من شارع «كافوري».

تأكد متثبتاً من العنوان في الورقة على باب العيادة وفي لوحة الإعلان.. الاسم حرفياً بالتمام، ودخل العيادة وجلس في صالون الانتظار، زبائن جاءوا للاهتمام بشعر الرأس..إنه الدكتور المختص بالصلع وتصفح المجلة التي وضعوها في قاعة الانتظار بها مقال وإعلان عن خبرة الدكتور في إطالة الشعر محاربة الصلع.. إنه يتحرق شوقاً لرؤيته. وأطل الدكتور برأسه بعد أن نادى مساعده على اسمه الذي قُدم له..

دق قلبه كاد يسقط.. رجفت ورمشت عيونه وطوح بالمجلة التي كانت في يده.. لم يتقدم خطوة إلى الأمام.. بل تسمر لحظات ثم تغلب على رجليه ونزع قدميه من الأرض.. وأطلق ساقيه للريح، وإن لم تكن هناك ريح وهرول إلى أقرب سيارة أجرة ومزق الإعلان والعنوان ورمى به في السلة.

لقد كان الدكتور نفسه أكبر صلعة شاهدها ورأسه كقعر إناء نحاسي مطلى.. كرخامة ملساء تنزلق عليها القطرات أو ينساب العرق عليها كمقعد قرد كبير.

كان في الطائرة يتحسس النقود هل ما بقى يكفي لتأجير سيارة.. أم يتكرم أحد الأصدقاء بتوصيله.

أيهما أصح نظراً

-1-

قال له، في نبرة حادة هائجة، وأسلوب تحد:

- أنا أصح منك نظرًا، كان جدي يقرأ على ضوء القمر.

ورد على صاحبه في نبرة أشد حدة، بأسلوب الواثق بنفسه:

- بل أنا أصح نظرًا.. ومن أنت يا أعمش، وإن كان جدك كما تزعم - بلا دليل ولا شهود - يقرأ على ضوء القمر، كم من عُمش كان أجدادهم من سليمي الحواس.. لكن أنت معمّص، حتى أهداب عيونك طائرة وجفونك مهّبزة.

ورد عليه وهو يلوح بيده.

- أنا لست أعمشًا، رمد خفيف وعالجته ذهب والحمد لله، ولعل ما تراه في أهدابي وجفوني من أثر الدواء أما أنت من المؤكد عندك عمى الألوان.

- تقول عمى الألوان، هذا أمره خفيف لا ضرر منه ويمكن التغلب عليه، وأستطيع أن أميز الأحجام أما أنت دائمًا تروح إلى البيت مدموغًا مصدومًا في حائط في شجرة في حفرة في حجرة، في باب في عامود في مأزق.

- وأنت يا مطيوش.. يا مرعوش تقول لجماعة من الثيران سلام عليكم ظنًا منك أنها مجموعة من الأعيان وفي وسطهم

شيخ القبيلة، كدت تمد يدك بعد إطلاق السلام لكن رفسك ثور فتراجعت وأنت تتحسس موطن الرفسة...

وكانت نكتة الموسم وحديث القرية في سهريات الأعراس.. وحتى في تجمعات التعازي عندما يطول بهم الجلوس.. ويثرثرون، أنت أشهر أعمش ألطش في ناحيتنا، على فكرة لماذا لا تبحث عن أمثالك وتكّون نقابة أو رابطة.. قد يجعلونك عميداً للرابطة أو النقابة قد تجد بهذا مركزاً ومنصباً وتتطبع بطاقة لا بأس..

– اسمع أنا أصح منك نظراً عند الامتحان يكرم المرء أو يهان.. بالبرهان والدليل.

كان الصديقان يتهارشان أو يتناقشان على رأس الشارع، بدأ الحديث مجرد فكاهة ومزاح خفيف أو كلام عابر ثم انقلب إلى جد وحدة.. بل وعِنْد ومكابرة كلاهما يزعم أنه أصح نظراً وقال لصاحبه:

– دونك كما يقولون، هذا حصانك وهذه السدرة...

وأشار بإصبعه حتى كاد يبظ ويطرف عين صاحبه

– ها هي اللافتة دونك.. تفحص أنظر الدكان للمواد الغذائية داود.. مكتوبة بهمزة على الواو أم كتبها الخطاط واواً بلا همزة.. ثم هل هي بواو واحدة أم مكتوبة بواوين.

ورفع رأسه وترمشت عيناه وصاحبه في إصرار وعناد وصوت متهدج يكرر طلبه وينتظر الجواب:

- هيا.. تأمل صوب نظرك.. تمقل مليح.

ولكزه بيده - عادة اللكز لم يستطع أن يتخلص منها هيا..

- شوف برّق.. بُص..

وأجابه صاحبه بعد أن صوّب نظره إلى الناحية التي أشار إليها، وقال:

- بل داود بلا همزة دال ساده واو من غير همزه.

- لا.. لا.. بل ها هي داؤود بهمزه طويلة. ها هي أطول من ودنك.. سامحني همزة طويلة أطول من ودن جحشكم.

وتداخلت وتناثرت كلمات المعاندة حول خط اللافتة.

- بهمزة.

- من غير همزة.

- بل بواو.. تعيط بواو.

- بواوين.

وشأن المناكفة والحوار حتى في السمر والأمور العابرة يشتد يحتد ويتصاعد ويصل إلى عناد ومراهنة قد تصل إلى المكابرة أو الخبط والشجار، وقد يؤدي إلى الخصومة والتضحية بالصداقة قال أحدهم نذهب إلى صاحب المحل نسأله على خط لافتته.

- بل نختصر الوقت نحتكم إلى هذا المار وهو يبدو عليه متنّور مثقف في يده كتاب.

- أما أنت أعمش صحيح هذا الذي في يده ليس كتاباً.

- أمال هو قرطاس.

- لا هذه فردة قبقاب في يده.

- باهي.. المهم نسألوه لا يهمنا ما يحمل في يده إن شاء الله محقن وإلا خازوق المهم يثبت صحة نظري أم صحة نظرك.

ونادى على المار.

- ياسي عبد الله.. ياسي عبدالله.. يا سي....يا سي...

ورفع صوت المناداة أكثر.. وتبدد وتلاشى الصوت في الهواء.. ولا جواب.. ولا فائدة وتبين أن هذا المار أصم قال صاحبه:

- ولو نسأله.

- قلت لك إنه أصم لا يسمع تقول نحتكم إليه كيف أتفاهم معه.

- نتحدث معه بالإشارات لغة الأصابع.

- عجيب بل هو فوق العجب.. كيف نفهم بالإشارة همزة أو واو.. أو واو مكررة كيف تكون بالإشارة وأنا لم آخذ دورة تدريبية في كلام الصم البكم.

لكن صاحبه أصر على محادثة المار بالإشارة والأصابع.

- كيف نفهمه السؤال عن حرف الدال حرف الهمزة.

وقف الأصم لحظات يتمهمه.. متوجساً مستغرباً وأشار السائل بأصابعه إشارات الدال على زعمه إصبعين منحنيين وهمزة إصبعين متقاربين والهمزة بنبرة إصبع بجانبها.. وأشار إلى اللافتة وهو يحرك السبابة وما جوارها..

وشأن الأصم قد يكون منفعلاً أو شاكًا فيمن لا يفهمه وأشار إليه السائل إشارة طبعًا لم يفهمها ولم يعرف ما يقصد هذا المجهول لديه فإن إشارات الصم فيما بينهم مصطلحات ولغة لها قواعد متعارف عليها.. يتحدثون بها ساعات ويزأطون ويتلاغون ويحلون بها مشاكلهم أما هذا الذي أوقفه ليلاً . وفجأة وفي منطقة معتمة ويشير بأصابعه.. ظنه سئ السلوك أو لصًا أو من فئة مشبوهة.. يا ساتر فما كان من المار الأصم إلا أن يتوكل على الحي القيوم ويصفقه كفًا داوديًا كاد يقع على الأرض كالزربوط.. وانفلت يمهمه وضمه الظلام والصمت ولم يره أو يميزه صاحبه.. وقال له متشمتًا:

- تستاهل.. تشير بأصابعك لأصم لا يعرفك.

وكان الأصم قبل انطلاقه أشار إليهم إشارة بذيئة وهو يقرقر منطلقًا في طريقه. رغم هذا أصر على معرفة ما في

اللافتة، واو بهمزة أم هي مجرد واو بلا همزة وهل كتب الخطاط دالاً واحدة أم خط دالين ولمح ماراً آخر على الرصيف المقابل:

- اسمع يا عمي.

وفجأة وقف الرجل المهرول. ويبدو أنه كان متعجلاً وبادره بالسؤال:

- قل لي اللافتة هذه على الدكان ماذا كتبوا عليها؟

- هل أنتم تقرأون!؟

- طبعًا نقرأ

- إذاً لماذا السؤال!؟

- أنا وصاحبي نتراهن.. هل الخطاط كتبها بهمزة أم من غير همزة بواو أو واوين.

صمت الرجل هنيهة وكأنه يدير كلمة يريد أن يقولها ورجله تتململ على الرصيف وقال:

- صحيح.. باين عليكم.. فارغين.. فاضيين أنتم تريدوا الدكان أم اللافتة.. ثم أن الدكان الآن مغلق تعالوا في الصباح واسألوا صاحب الدكان.

- لا.. لا.. لا نريد الشراء أو انتظار صاحب الدكان لكن عندنا عليها نريد الآن التأكد من الواو والدال والهمزة على الواو.

- هل أنتم مفتشي اللافتات!

- لا.. لا.. لا مفتشين ولا موظفين ولا يحزنون.

- أمال أنتما أيش!؟

- نحن متراهنان.

- راهنين حاجة عند صاحب الدكان.

- لا.. لا.. ليس رهنًا من الرهونات إنما هو رهان هل هي بهمزة أم سادة بدال أم بدالين..

- وماذا يترتب على هذا!؟

- من هو أصح نظرًا هل أنا أم صاحبي.

قال الرجل وهو يكاد ينفجر أو يصدر نعوتًا يعف لسانه عنها:

- اشهد الله أنكم فارغين ضيعتولي وقتي.

ونظر في ساعة يده وهو يتحوقل وقال:

- عطلتوني.. الله يعطلكم وانطلق مسرعًا..

لم يشعرا بضياع الوقت مازالا يتعاندان وكلاهما يصر على رأيه وموقفه.. يا له من رأي وموقف وتوجها بالسؤال الملحاح إلى أحد المارة.

- قل لنا لافتة الدكان هذه فيها واو والاّ واوين وهمزة على الدال.

ومط الرجل المار شفتيه وشد يد زميله المار معه شده أو تله

من يده قائلاً:

- اسرع هؤلاء يتكلموا في السياسة وأنا مالي.. لا ترد عليهم وهرب هو وصاحبه المار من طريقهما وهو يتلفت متوجساً.

وتعددت المرات التي وجهوا فيها السؤال إلى الذين يتصادف مرورهم أمام الدكان وعلى الرصيف وقال أحد المارة عندما وجه إليه الأعمشان السؤال:

- إيه.. لازم واخدين كيفية من ساعة أو ساعتين عيونهم فوق..

وجذب المار زميله وقال:

- خف رجلك بالك، إيه فكني من حصان المكني ورد عليه، أحسن تبات في الحبس وماعندكش كفيل ولا معرفة ولا كتوف.

- يا سيدي، نلحس مسني ونرقد متهني دير روحك ما سمعتش وإلا الدوة موش معاك. وقال آخر من المستغربين لوقفتهم على الرصيف.

- لا.. لازم غربا.

- لا.. لازم هؤلاء لصوص.

- لصوص آخر الليل.. ولا أول الليل.

- هناك لصوص حتى في النهار في وسط القايلة والشمس طالعة.. عيني عينك.. على عينك يا تاجر.

- أنت مغفل هؤلاء يبصوا لبنت من الروشن ريتها بنت حلوة

وجميلة.

- لكن هذا عيونه عمش وشكله شين كيف يبصبص ويعاكس البنات الحلوات!

- الجمل ما يشبحش لعوج رقبته والحب أعمى وقالوا في الحومة البنات عددهم أكثر من الأولاد.

- لا.. بل هؤلاء من نظرتهم وحركتهم على الرصيف وأمام الدكان لازم عندهم أشياء ممنوعة مهربات أو حبوب.

- حبوب لعلاج الصداع!؟

- لا.. يا مغفل حبوب لجلب الصداع ووجع الدماغ، مساكين ناس يشروا في هلاك الصحة بأيديهم لا دين ولا ملة.. لا جعرة لا حياء، حبوب بلع وشم وسم وسحينتي والعياذ بالله.. وهي علامة وماركة فيها واو، وعندهم سبسي مليان ما هو نشدك فيها واواً وإلا واوين هذا زي اللي ينسرفوا جر شكل ويسألك.. الساعة كام: والسكة منين.. أسرع لازم مشبوهين كيف ادخلوا آفة الشم والحبوب في البلاد ما كنا نعرف هذا في آبائنا الأولين...

هكذا كانت توجسات المارة عنهم وهم مشغولان بلافتة الدكان، وكان هناك شاب يمر على الرصيف قرب المحل.

- قولي يا شاب الخط واضح وإلا ما هو واضح في لافتة

الدكان. وأجاب الشاب وهو يسرع الخطو مرتعش الأقدام:

- أنا موش من هنا وأمي موصياني لا أتكلم مع الغرباء.

- شنو غرباء نحن ولاد الحومة.

- طبعًا لا يسأل إلا الغريب أو التائه أو الجاهل أو المتجاهل

- شكرًا على ذوقك ولطفك.

نظر إليهما شزرًا حذرًا وهز كتفيه وانطلق... وقال لصاحبه ومناوئه نذهب إلى صاحب الدكان لنحتكم إليه.

- نذهب غدًا والصباح رباح.

- لا... بل الليلة والآن علمني والدي الدقة والمبادرة وحفظت من المأثورات لا تؤخر عمل يومك إلى غد.. وخير البر عاجله.

- أي بر. يا سي تُرّو الهمزة واضحة.

وأشار بإصبعه إلى مكان لافتة الدكان.. داؤد.

- بل من غير همزة.. واو... واو... كما يكتبها كل الناس في الصحف والمجلات وينطقها عباد الله الطيبون.

- بل هنا واوان أهي تبظ عينك.

- إيه يا أعمى الألوان حتى الرخصة للسيارة أخذتها بعد أن تدمدمت. واندمغت وأيضًا بواسطة ورشوة وحيلق.

- قلت لك عمى الألوان لم يعد في عصرنا مشكلة اكتشف العلم له علاجًا.. وهناك أيضًا لاصقة طبية توضع على العين

بواسطة طبيب عيون لكن أنت عندك قصر نظر، متوارث جدك أعمى... ورد عليه:

- ليس من العيب هناك نوابغ يكفي أن منهم المعري وبشار وطه حسين والشيخ إمام من النوابغ.

- أنا لا أحكي عن النوابغ والفلتات يا فلطة أنت يا صديقي تتهمني أني لا أبصر همزة اللافتة وأنت دائمًا مدمدم مصدوم من جدران حومتكم وتعاند ولا تريد أن تعمل عصا ولا عكوز ولا تركب منظار.. إن شاء الله تطيح في بير.

- إن كان بير بترول لا بأس.. يا ليت.

- لا.. هاداك شيء مغطى بعيد عن أقدامك وإيديك لهطوه شفطوه الأكابر.

- أنا كنت أرى جدتك وأنا صغير وهي بعكاز.

- أنت لا ترى تحت أقدامك كيف ترى همزة اللافتة كم حفرة وقعت فيها الأحسن تعمل لحذائك جهاز إنذار قبل أن تطب وتكب.

- يا سيدي طول الخيط يودر الأبرة نذهب لبيت صاحب الدكان.

- لا.. ربما يكون أُميًا شأن كثير من الزناقيل المباسيط لا يعرف الفرق بين الهمزة والدال أو لا يفرق بين التكرة وبعر الجحوش... بل الأحسن نذهب للخطاط.. وعند جهينة الخبر

اليقين.

- لا... ليس جهينة.. بل الخطاط أبو بثينة.

- يا أخي جهينة هذا مثل متداول لو كان عندك نظر ونظر سليم كنت قرأت الإمضاء أبو بثينة على اللافتات وعلى الرسوم والصور تكون بخط دقيق وبشكل لا يقرأه إلا سليم البصر.. يا سي تُر.

- نذهب للخطاط صحيح هذا أضمن وأكد لكن حوشه بعيد.

- في سبيل التحقيق والتأكيد لا يهم التعب والبعد لا بأس.. وأش عندك ما تدير.. نضيعوا الوقت..

- نضيع الوقت.. يا بختك عندك وقت..

- وأنت ألا يوجد عندك وقت!؟

- والله ما عندي وقت إلا لطرح الكارطة «الكوتشينة» لعب ساعة زمان ساعتين.. هدرزة دق حنك.

- المهم الخطاط نعرفه ونؤكد منه لافتة الدكان بهمزة وإلا من غير همزة، بدال واحدة أو بدالين داوود -طاووس- كؤس.. فكرتنا بكراسة الإملاء وأيام المشق.. يا حسرة.

ثم قال متلافياً:

- لعل الخطاط يكون مشغولاً مزدحماً بكتابة لافتات الحكومة.. عنده وارد موسم يكسب أكثر من كاتب أديب أو

شاعر متألق أو عالم وفيلسوف دارس أو متخصص كيمائي.

- أنت حاسدهم ما هو عمل شريف نظيف فيه جمال وخبرة وتعب مشقة وموهبة ومران.. يا سيدي أعمل خطاط إن استطعت وإلا كاتب حجابات.

- أنا لست حاسداً لهؤلاء ولا غيرهم.. لا أعرف الحسد أنما أشير إلى ظاهرة سوق ورواج مهنة ومهنة دون مهنة..

- قد لا تجدة فارغًا.. وربما لا يهتم بك أنت تسأله عن او.. أو واو بهمزة طائرة أو همزة ثابتة يا قليل النظر.

- أنا قليل النظر يا مدهمش!

- هيا نتخاتروا نتراهنوا أجابه.

- قالوا الرهان حرام.

- إيه.. يتعففوا على الأباري ويبلعوا الصواري وهو انت ما عرفت من الحرام إلا هذا؟ خللي التبن مغطي شعيره.

- امال انت يصلوا على طرفك.

- المهم واو وإلا... واوين.. همزة وإلا من غير همزة.

- أهي اقرأ أن كنت تفرز يا دهموش.

- قلت تخاتر.. تراهن.. ايدك.

- اراهن بعشرين مليم.

- ايه المليم ما عاد له معنى وحتى الدينار والجنيه الدنيا

شاطت فيها النار من الغلا والكوى مليم زمان أبوك وجدك.

- عشرين دينار.

- وأيضاً لا قيمة لها.

- خمسين.. هات أيدك «استابينا» بل مئة دينار إياك تتراجع.

- قوللي انت كنت تدرس وتقرأ وألا تسمسر اظن صوتك صوت سمسار هلوع، واظن القراية تبخرت من زمان.

- 2 -

وذهبا إلى بيت الخطاط ودقا الباب فقد كان الجرس خرباً.. أو النور هارباً وتواصل الدق.. ولا دق محضر متعجل أو شاويش متعجرف عنطوز.

قالت الزوجة:

- خير.. اللهم اجعله خير..

ثم قالت:

- يا سلومة إياك تفتح الباب.

وأجابها:

- ولماذا لا أفتح الباب يا حليمة؟

هكذا المناداة بينهما بأسلوب الدلع والترحيب والمناكفات المتواصلة والتهاب الطقس والمنغصات المنزلية - لكن يظهر

هذا يوم صفاء ومزاج رائق عند حلومة رغم المنشار الذي بين فكيها.

قالت له محذرة..

- لا تفتح الباب.. يا سلومة رد من وراء الباب واشبح من النقبة الزجاجية العاكسة ولا تفتح إلا لما تتأكد فقد دقوا على باب الجيران لولد عمتي سالم سليم ولم يعد اما لثار قديم أو ضغينه أو تقرير سري.

- وواحد فتح الباب رشوا عليه مادة دوخاته - بالك أصحابه يمزحوا.. ما عندي أصحاب يمزحوا بهذا الشكل.

- مزاح سخيف ثقيل سواء مزاح الجندرمة وإلا الأهالي.

- لا.. ما هو مزاح لصوص.. مخانب.. خطفوا طاقيته..

- بالك تأخذ زكمة وإلا بوجنب وشهيقة ويضحكوا على صلعتك.. اسمع كلامي لا تفتح الباب خاصة في الليل. يا رجل إللي ما يسمع كلام مرته يتعب كما قال الحكيم.

- من قال هذا..

- سيدنا عوج بن عناق رضي الله عنه وعملت الزوجة الناصحة من عوج بن عناق مرابطًا وحكيم هذه الأسطورة.

والتفت قائلاً:

- إيه عقاب كلامه واللي يسمع كلام زوجته يتعب أكثر.

تواصل الدق والطبل المنذر المرتعب وتوجه الرجل نحو الباب واتهم زوجته بالوسوسة والتخوف أو الذعر المتوارث منحدر إليها من جدها المخلوع المرتعب من دق الباب في العهد العثماني دقوا الباب - أي على الجد رحمة الله ودقوا رأسه أيام الميري ومطاردة «غومة» أيام «الشبكة».

ولكن صاحب المنزل الخطاط تجاسر ورد بصوته وخطه أجمل من صوته.. وصوته أجمل من كشخته.

- من.. من أشكون!؟؟ لحظة.

وحرّكه هاجس الطمع والربح.. لعله زبون يريد لافتة وتتكاثر أيام ذاك اللافتات في مواسم الانتخابات ومواسم المزايدات وأسواق السماسرة والشعارات والتجار أصحاب الإعلانات وتخفيض بلا تخفيض.

خرج لهم وأصابعه المرتعشة مشغولة بربط تكة سرواله وكانت عقدة التكة متلولبة الله أعلم هل كان يتبول أم كان من غير سروال - وليس من الذوق والأدب أن يقابلهم عند الباب بجلباب بلا سروال أو بسروال بلا جلباب.

وفتح الباب وهو يبسمل، كان في دخيلته مذعوراً أكثر من زوجته.. وبعد سلام مقتضب ومقدمة قصيرة بلا اعتذار..

تفرس في سحنتهما لم يشاهدهما من قبل.. وقال له أحدهم وهو الأكثر عمصاً وعمشاً.

- يا أستاذ جئناك فض لنا المشكلة.

أجابهم.

- يا سيدي عفواً يبدو أنكم أخطأتم العنوان شيخ المحلة فضاض المشاكل يسكن وراءنا.

- لا.. بل نحن نقصدك أنت بالذات لم نخطأ العنوان.

- لكن أنا لست فضاض مشاكل لا أفض النزاع والخصومات هذا من اختصاص الشيخ زعكوك شيخ المحلة رجل طيب وابن حلال.

وتدخل الأعمش الآخر قائلاً بعد مأمأة وتهتهة لا بأس بها أو فيها بأس.

- الموضوع عندك.. ونقصدك أنت..

- هل تريدون كتابة لافتة.. أنا مشغول تعالا بعد أسبوع..

- لا نريد كتابة لافتة ولسنا من أصحاب الإعلانات ولا المزايدات ولا تجار.. إنما نريد قراءة لافتة مجرد قراءة للتأكد والتيقن.

وعجب الخطاط وذهل مندهشاً لهذا الطلب الغريب المفاجئ

له واستوضح الموضوع أكثر.

اللافتة بخطك الأنيق الجميل في دكان الحاج عطعوط داود

- أنا وزميلي هذا على خلاف ونزاع.. وبيننا رهان.. وعندك زردة.

- أي ندعوك لزردة عند سانية الجواب عند انتصار أحدنا..

هنا سكت الخطاط لحظة وهرش قفاه وحك ذقنه في حركة تلقائية.. وقال بصوت متقطع.

- لافتة دكان عمي عطعوط داود للمواد الغذائية، والأدوات المنزلية.. إيه.. لكن هي ليست معلقة هناك على دكانه.

لا يوجد الآن عنده لافتة معلقة.

- أنا كتبتها ولم أسلم له اللافتة ولم يعلقها ها هي مركونة في المر هنا سيأخذها فيما بعد.

وقال الرجلان في نفس واحد.

- دكانه بلا لافتة؟!!

وأغلق الرجل المتوتر الباب في وجههما حتى كادت أصابع الأول أن تحصل بين ضلفتي الباب عندما اصطفق الباب بشدة وانسحب الأعمشان صامتين مطرقين يلفهما الظلام والحيرة، تتحس أقدامهم الرصيف الصامت.

برنوس هدية

كان رئيس وزراء إحدى الدول المرتبطة بحلف غربي يقوم بزيارة رسمية للبلاد، وامتلأت - كالعادة - الحوائط بصور طلعته والملصقات وعبارات الترحيب، والترجيب بالمناسبة «التاريخية» - تلك العبارة التي فقدت معناها، وقيمتها، وجدواها، لتهرئها من كثرة الاستعمال، ووضعها لكل من هب ودب، وطب، مثل عبارة «الفرصة الذهبية» «المناسبة الخالدة». وشُكلت اللجنة العليا، وتفرعت منها لجان... وهيئات لتنظيم الاحتفال ليكون لائقًا بالزائر الكبير.. والمناسبة الكريمة.

وساقوا مجموعة وطوابير طوبروها لتصطف على الأفاريز.. وتهتف حناجرها، وتلّوح بأيديها وتتزاحم بأكتافها.. وتشرئبّ بأعناقها، وتضرب رؤوسهم شمس الصيف القائظ في لهبه المستعر. وكان البعض منهم عنده جريدة وجد فيها فائدة الاستظلال بها.. اتخذها وقاية لئلا تضرب يافوخه ضربة شمس ماكنة، وبعضهم أراد التسلل خارج المجموعة ليرتاح في بيته أو يذهب ليقضي من السوق شؤون غذائه لكن نهره ذلك الملاحظ اليقظ في مثل هذه المواكب والمناسبات.. والذي كان يثبت وجدوده بتوافه الأمور.

كانوا يهتفون من الصباح حتى قبل أن تحلق طائرة القادم الزائر.. أو تقلع من بلاده، ونشط المسؤلون والموظفون، وأعضاء المجالس والمكابس، والأعيان والعيون.. واجروا وجلبوا فرقة الزغردات والتواشيح والتلاويح، والبنادير، والجبب والطراطير وكان هناك من أشتهر بسلخ وشي الخرفان وتقديم «بورديم» وبنود المصاريف السرية كفيلة بكل هذا.. في موسم الزيارات وخاصة لتشريف العواهل، والكواهل فرصة للاهتباش والارتياش، فيها مسارب ومنافذ ونوافذ.

وأقيمت حفلة غذاء على شرف الضيف الكبير والزائر الجليل، وكان الاحتفال به على المستوى الحكومي الرسمي، وجماهير الشعب كانت في شُغل شاغل عن مثل هذه المواكب.. لكن بعضهم بدافع حب الاستطلاع أو الفُرجة والفراغ وقف يتفرج فُرجة مجانية.

وجاء الضيف - الذي أصبح الآن في ذمة التاريخ، وما أوسع أشداق التاريخ، أو أصبح وراء الضباب.. إذ شنقه قومه حسًا لا مجازًا. وقف يتفرج على لعب الخيول، ما يسمى - ميز- وأُعجب بالفروسية ومهارة «اللاهدين، والتقطت الصور وشُغلت، وشُحنت الأخبار والصحف بتنقلات حضرة الضيف، ومقابلاته، وابتساماته.

وفي حفل أُقيم في إحدى مدن الدواخل.. وجاؤا بأصحاب الخيول من مسافات بعيدة، لبسوا أفخْر ثيابهم وتعطروا وتبخْروا.. والعطر يزيله الريح القوي. وكان بعضهم متألقًا يعتز بميراثه من الملابس المزخرفة المزركشة ذات التطريزات الزاهية.

وكان أحدهم ورث برنوسًا. يعتز به، لا يملك غيره من أيام عز أهله.. أملس.. زاهي.. بشراشيب وأطراف حريرية.. وتطريزات جميلة، والرجل عفيف اليد والجيب والوجدان، من نوع يصدق عليه مضامين الآية الكريمة [تحسبهم أغنياء من التعفف]. كان يدارى مرقعاته وثيابه البسيطة بارتداء البرنوس العزيز.. لم يفرط فيه رغم توالي سنون الضنك والبؤس. إذا أقيم عرس في القرية طلبوه منه، ليميس به العريس في ليلة زفافه وسلطنته، يمشي به مشية الخيلاء والطاووس.. وإذا حل عيد خرج به لصلاة العيد.. وإذا جاء زائر مثل الوالي أو المتصرف بادر بإرتدائه ليثبت أنه من الأعيان والوجهاء. يحافظ في تعليقه وطيّه.. لئلا يبهت لونه أو تعبث به العتة.. أو يضربه سوس، وجلب لهذا دواء مجربًا من العطار، وفي حفل مثل هذا ستر به نفسه.

ولمح الضيف الكبير برنوس الرجل الفقير الفارس وعندما أعجبه البرنوس وحلى في عينه أشار بإصبعه وهو يوكوك ويتمتم:

- عفارم.. عفارم.. جميل.. جميل نازك.. نازك.. اردكاش جميل.. برنوس.

وكان هناك أحد الأمعات من طراطير المناسبات ومهرجي الاحتفالات، وكان يُشرف على الحفل ويحتك بحاشية الضيف.. ويستجدي تذكرة سفر إلى بلاد الضيف.. ويقوم بحركات ملفتة لنظر حاشية الضيف الزائر الكبير إمعانًا في الاهتمام والزمزكة والإكرام ودلالة على - نحن هنا في الخدمة - وعندما تلقفت إذن هذا وسمع ثناء الضيف وإعجابه بالبرنوس الجميل، هرع مبادرًا إلى ناحية صاحب البرنوس وناداه:

- تعال هنا..

وعندما تقدم فرحًا مستبشرًا بهذه الإشارة قال له:

- سلّم على جناب حضرة سيادة الضيف.. سلم عليه..

وفرح الرجل فرصة لإثبات مكانته أمام أهل بلده.. وقد تلتقط له صورة تذكارية.. وجاء مزهوًا وسلم ببراءة.

وكان قد حفظ كلمات من لغة الضيف هتف بها أمامه وأراد أن يتراجع في انحناءة وهو يلوح بالتحية.. وينسحب. لكن ذلك الطرطور الإمعة.. امتدت يده نحو الرجل وخلع منه البرنوس، وقدمه إلى الضيف الزائر قائلاً بكل صفاقة:

- خذ هذا هدية..

وكانت لحظات مفاجئة، وشكر الضيف وابتسم. أما صاحب البرنوس الذي ظهر ثوبه المرقع وقف جامداً هامداً.. لا يعرف كيف يحتج.. وارتج، ولف الأمعة البرنوس في لحظات، وتسلمه الياور الخاص للضيف الكبير وعاد المواطن الفارس مسلوباً ولم يعوض بشيء عن برنوسه ولا حتى رسالة شكر وامتنان.

وأدار صاحب البرنوس وجهه، وكادت تطفر الدمعة الحاسرة من عينيه وقال عبارة واحدة لم يسمعها الضيف ولا الطرطور الأمعة:

- العوض علي الله.. الله يرزيكم.

أما صاحب الأصابع الطويلة الذي سلب البرنوس وقدمه هدية.. فقد نال تذكرة سفر ودعوة «كريمة» إلى بلد الضيف الرئيس الزائر وظل أياماً هناك من أجل هدية البرنوس.

فض الشراكة

كانا من أشهر التجار المهرة في عصرهما وأكثر ممارسة ومعرفة بعالم الاقتصاد ودنيا المال، نشاط متواصل وذكاء موروث ومكتسب، اكتسبا الشهرة والصيت بلا إعلان مدفوع الأجر، بل بالخبرة والممارسة والدأب، محمود الصفاقسي، وحامد الجربي كسبا المال والخبرة والشهرة حتى خارج محيطهما لهما دقة في الحساب، عين فاحصة لاقطة وذاكرة رقمية مستوعبة كانت عجيبة قبل اكتشاف آلات المحاسبة وأدوات «الكومبيوتر» يعرف كلاهما قيمة وأثر القرش والمليم والفلس والزلطة، والسبيليه والدانق والسحتوت والسنت والسنتيم وأبو طيرة، والدورو، عملات انقرضت لكن ما زالت تمارس على الشفاة وفي المصطلحات ومن قبيل الحسبة والحسبان، والمقابلة والمقايضة ومن أمثال أولئك قد تجد عندهم تحت السدة أو تحت البلاطة عملة من عهد خُرشف أو الاسكندر المقدوني ومن عهد ما قبل وبعد الفينيقيين والأغريق، يعرفون قيمة العملات ولم يزاحموا في «بورصة» وقبل استعمال أو شهرة الدولار وزحمة الين وصولة اليورو وهبوط العملات العربية، ويدركون أثر المليم يوم أن كان ركيزة مثل السانتيم يوم أن كان يحاسب به مع ريال تريزة أما الجنيه

اللويزي وبو طيرة والمجيدي حتى بعد ذهاب السلطان عبد المجيد وأمجاده فحدث عندهم.. ولا حرج.

يعرفان أثمان وأوزان المنقوش والمنفوش والمطوي والمفروش واتفق محمود الصفاقسي وحامد الجربي على تكوين شركة بينهما.. ويكمّل أحدهما الآخر في الحذاقة والشطارة والمعرفة والمهارة.. واجتمع الاثنان للتشاور والتفاهم .. ووضع الأسس لهذه الشركة من ناحية رأس المال والإسهام وخريطة النشاط وأنواع السلع والبضائع والمجلوبات من طنجة وفرنجة والبر البعيد وسير القوافل والسفن، وطرح الأوراق في طريقة التعامل وحكاية الدخل والخرج والجمع والطرح، ومعرفة الفائض ومواسم العرض والطلب.

وهما، بحكم الممارسة والمهارسة والمعاملة أكثر حنكة وأعمق خبرة من تلك الطوابير المُطنبرة من خريجي كليات الاقتصاد والتجارة ومعاهد مسك الدفاتر أو انسياب الدفاتر من أصحاب الشهادات المطمورة في ملفات أو معلقة على حوائط منزوية، بل كان يعتبر دماغ الواحد منهما محمود الصفاقسي وحامد الجربي خزينة مشحونة بالملفات والأضابير والعناوين في شتى أنحاء المعمورة والمغمورة خاصة في المناطق

والواحات والشواطئ التي يتعاملون معها.. يدركان المطلوب والمرغوب في الأسواق ويعرفان من البضائع والأصناف حتى «ما يسوس بالملح».

يدركان أكثر من دكاترة وأساتذة الاقتصاد النظري الورقي أولئك على التصور والورق والمشافهات، أما هما يمارسان الحياة الاقتصادية على أرض الواقع والشغل العملي في وسط السوق، يعيشان علي أرضية حقيقية لا مجرد حساب في فراغ أو كما يقول بعض الساخرين «بقّى»، يعرفان الأسواق ومواسمها وأماكنها حتى في القرى البعيدة والنجوع المتنقلة والدشرات المطمورة.. ومواسم الزرع والقلع والحصاد وجني الثمار.. وأنواع السلع وفترات الرواج وأوقات البوار والمعاينة والمقايضة والجمارك والضرائب، ولا عجب فمنذ صغرهما مارسا بلهفة وشغف العمل التجاري، فهما أبناء سوق عندما كان الواحد منهما صبيًا صغيراً وفتى يافعًا في قافلة كانت ذاهبة إلى أواسط ومجاهل أفريقيا «لم يعد في العصر الحديث شيء اسمه مجاهل» وتعرفا إلى تجارة البر والبحر، تجارة القوافل والسفن والواحات والشواطئ وكلاهما عرف نوعًا من المخاطرة الصحراوية والبحرية، عواصف الرمال وضياع

مسارب الطرق، أو ضياع البوصلة، وحيرة الربان، خبرا الجغرافيا عمليًا باجتياز المسالك والطرق والواحات والجزر يوم أن كان السفر حقيقة قطعة من العذاب، لكنه مستعذب والربح، وبنظرة فاحصة؛ يعرف أحدهما من نوع النخلة كم تنتج عرجونًا، والدالية كم تنتج عنقودًا، وشكارة الدقيق كم يصنع منها قصعة كسكسي.. والبرميل كم فيه غراف زيت ومقطع القماش كم يأخذ منه الخياط ثوبًا وكومة الصوف كم تغزل منه الناسجة كبّة أو كليمًا يوم أن كانت النسوة ماهرات في صناعة الأكلمة والبسط، يا حسرة !! يعرفان هذا البلد أو المدينة كم تحتاج إلى بلغة أو مداس أو سروال وطاقية.

محمود الصفاقسي وحامد الجربي كانا من ذلك النوع الماهر النشيط، تاجرا في كل شيء من الملبوس والمقضوم والمهضوم - ماعدا المسكرات والمحرمات - فقد غضبا من تاجر في إحدى مدن السواحل عندما علما أنه يتاجر في المحذور والمخمور، وان كان ذلك التاجر لا يشربها. غضبًا من بائع الخمور المؤدية للعصيان والفجور ومن ذلك التاجر المسلول الأصفر المعلول الذي علما أنه يتعاطى مع زبائنه بالفايز، لأنه وصاحبه تاجر أمين عفيف نظيف لا يريد أن يقوم

كمن يتخبطه الشيطان من المس، من هذه الناحية، هو طاهر اليد نظيف المعاملة لكنه كصاحبه كزّ اليد، قليل الرماد كما يقول أصحاب الكنايات أو أصحاب الكوانين.

حتى إن أدوات الألعاب لأطفال ببيته لم يشترها من سوق الألعاب؛ إنما بمهارة وحذق صنعها لأطفاله بيده من ألواح وتنك، وركبها من خيوط ومسامير وأسلاك وأصباغ ولولب أرجوحة ولعبة وتسلية، اخترعها ولم يسجل اختراعها، فاته ذلك، ولم يدفع في هذا سنتيما على حد تعبيره بل طلب المواد من الحاج «مرتك» لوحًا ومنشارًا، ومن الحاجة «زازية» خيوطًا وسبالو، ومن الحاج الدمدام مسامير قديمة وكلاّبًا، ركب اللعبة لأطفاله بدل الخسارة بشرائها وهي على حد وصفه أمتن من لعبة بلاستيكية مجلوبة من الصين واليابان.

وذات مرة طلب من أحد معارفه ألعاب أطفاله الذين كبروا وغدوا رجالاً بشوارب وعندما سأل الجار:

- وماذا تصنع بها هل أصبحت تتاجر في الألعاب القديمة؟

أجاب:

- لا.. بل أطلبها منك فهي زائدة عليك وحرام أن تطوح بها للكناس أو كومة الرابش.

- قلت وماذا تصنع بها!؟

أجاب:

- أدخرها لأبناء أولادي عندما يكبر الولد الصغير ويتزوج ويخلف صغاراً بدل أن أشترى للحفيد لعبة.

وفاته أن يقول له:

لماذا لا تركب وتصنع للحفيد لعبة كما ركبت لعبة الولد.. لعله لم يقل له هذا لإنه لم يسمع بالحكاية.

وكان خبيراً بالتقديد والتمليح والتشليح قبل انتشار أدوات الحضارة والتقنية من الثلاجات والفرچدير.. كان يقدد ويملح اللحوم والخضروات قبل أن يذهب أوانها إذا ذهبت إلى بيته.

إذا تكرم وسمح لك بدخول بيته تلاحظ عند مدخل البيت أربعة أو خمسة أزيار كبيرة عجيبة الشكل من رواني، ولا رواني علي بابا أو جحا.. هي مليئة بالمخللات والمقددّات ومدخرات من الخزين.. لمواسم الصيف والشتاء.. لعام ونيف.. بل لأعوام من قديد ودهانْ وزيتون وأشياء لا نعرف أسمائها ولم نذق طعمها تغنيه هذه المدخرات عن النزول إلى السوق وتعب أو خسارة الشراء كل يوم توفير الوقت، وتوفير المال

وتوفير الصحة كانت المعاملات آنذاك وفي ذلك المحيط الطيب بلا سند ولا وكيل ولا ضامن ولا شاهد إلا من الضمير، المعاملات الجارية معتمدة على الهمة وطهارة الذمة، بالكلمة والثقة والشرف، ويقول لك بلغة السوق في التعارف «فلان مسوجر» لا يتعاملون في الصفقات والمبيعات بالكمبيالة أو الرهن، بل بالثقة والمعرفة والذمة يرسل إلى الشخص المتعامل معه البضاعة في جوالق وشدّات وأحيانًا أطنانًا أو وسقة مركب بمجرد أن يرسل المتعامل الراغب رسالة أو يطلب طلبًا ولو مشافهة، بعد عام أو عامين يكون الدفع أقساطًا أو دفعة أو على جني الموسم أو مقايضة ببضاعة أخرى، وكثيرًا ما يوسق عبوة مركب بالكلمة وقد يقوم الراسل بتنقية البضاعة وفرزها وإخراج العطب السيء منها حتى تغدو سليمة مضمونة الجودة وكم من مصاهرات عقدت وزيجات بين أسر وعائلات التجار، تجد روابط عميقة الجذور من خؤولة وعمومة على السواحل والشواطئ في الواحات البعيدة، وألوان وسحنات ممتزجة ودم مختلط بالحلال وامتزجت الألوان واللهجات وتداخلت الأسماء والألقاب وتشابكت الكني والنعوت بسبب المعاملات التجارية ما عجزت عنه آفاق السياسية وشطحات الشعارات

من تمازج وتوحّد وانسجام خلقته المعاملات والصلات بين التجار والعلاقات الاقتصادية، بالحب والصفا والمشاعر الإنسانية وقد تكون المعاملة بالمقايضة والمبادلة يرسل إليه بضائع من التمر والدقلة وله أنواعه وصنوفه ودرجات جودته وحلاوته التي تنز نزًّا مما يعرفه أهل الخبرة من المزارعين المتوارثين للمهنة، وأنواع من الزيتون والحنّة يوم إن كان سوقها رائجًا بين الحسناوات قبل غزو الأصباغ المصطنعة والألوان الزائفة..

وأنواع اللُكّ والصباغة.. والزعفران الجلجلان مقابل أردية.. وبرانيس وعباءات وجرود وبلغ وعفاسات وأنسجة وبسط وأكلمة وعطور وبخور وكانت رائجة التجارة مع فاس ومكناس وما يعرف بالغرب الجواني.



وحامد الجربي، ومحمود الصفاقسي كانت لهما صلة تجارية بأبناء العمومة بالأسكندرية.. هناك القيسارية وسوق الخيط وحي العطارين وبحري وميدان المنشية والمكس حيث عمنا أبو القاسم حمزة، وجده الكبير متعهد اللحوم في جيش

إبراهيم باشا وكان لهم سفن أو مراكب تجارية خط سيرها من مصراته، قصر أحمد والأسكندرية وجربة وصفاقس وكان لهم معاملة مع أبناء «جمعة» بجربة وأبناء غربال قبل افتتاح قناة السويس وتغير مجرى الملاحة في حوض البحر الأبيض والبحر الأحمر.

وكان هو وصاحبه مصرين في مطلع شبابهما على زيارة الإسكندرية وبالذات كلما سمعا من أقرانهما «زنقة الستات» حيث لا يمكن لسمين ضخم مترهل أن يمر بها إلا بصعوبة بالغة لضيقها وازدحامها.

وكانت «زنقة الستات» على ما يروى «همساً» المعاصرون لمجدها مشهورة بقرص الستات والاحتكاك بهن نوع من الطيش والعبث أيام الشباب ولهب العروق، ولم يبد رغبته لأبيه لزيارة زنقة الستات، بسوق الخيط إنما قال له:

- يريد زيارة «أبو العباس مرسي» و«الأباصيري» صاحب البردة.. حارس شاطئ الإسكندرية.

وكانت القناعة لديهما بالملبوس والمأكول، أما المخزون والمكنوز والربح والمكاسب والتكديس وحب الثراء فلا قناعة ولا زهادة بل رغبة عارمة في الزيادة وإن كان بعض من زملائه

إن سأل عن صاحبه قال دلالة على الاكتفاء والستر:

- لا بأس عليه، خبزه مخبوز، وزيته في الكوز، وقنديله في طاقته... يشعل..، تصور منتهى السعادة.. خبز وزيت والقنديل «والطاقة هنا هي النافذة من فصيح المتداول.

كانت لهما صلة بقوافل تقصد كانو وتمبكتو وبرنو، وكوكا وأيضاً ما هو أبعد وأكثر تحضراً واقتصاداً سرنديب، وجاوة وسومطرا حيث يجلبون من هناك، الجاوي، والمستكة والفاسوخ وأنواع من البهارات والعطور، والشيلان والكشمير وصنوف من الحرير، والملف وإذا قام أحدهما بزيارة لبلد قريب أو بعيد عادة: لا ينزل في فندق «والفنادق آنذاك خانات واسعة متعددة الحجرات للبضائع والمخازن أيضاً وللنوم» كان لا ينزل إلا عند أصحابه في بيوت ومنازل الذين يرسلهم ويتعامل معهم، إما احتراماً وتقديراً وزيادة الصلة وفي الأغلب توفيراً واقتصاداً - ورغم الحرص والاقتصاد أو التوفير الذي يصل إلى حد التقتير والمعيشة بحسبان وحساب إلا أن بعضاً منهم يحرص على أداء فريضة الحج، وأن يجعل من سفرته وجه عبادة؛ وتبتلا وأيضاً تجارة وربما بعض من الأثرياء عندما يطفح كيل العمر يوقف شيئاً للسابلة وطلاب العلم،

خاصة في رواق المغاربة بالأزهر الشريف، أو جامع بن طولون بالقاهـرة أو جامع الشيخ بـالإسكندرية، هذه القناديل والمنارات التي خفت ضوئها مع مرور الزمن الشاحب والعصر اللاهث.



ولبـعض هـذه الفـئـات في المحـيط المزدحم قـامـوس للمصطلحات وتعابير متداولة رائجة تدل على السير بمقدار والأنفاق بحذر.

البخل = يعتبر شطارة وحزماً.

الأمساك = حذاقة.

الاقتصاد = حكمة.

الأنفاق والتبذير/ التبديد = بلها وعبطاً أو اعتباطاً.

وعلى هذا من ينفق مـاله بـلا طائل ويبـدده يطلق عليـه في وسطهم... فلان مفلوق.. أو ضايع أو هرطيل.

- 2 -

كان الشتاء شديداً والصقيع لاذعاً وقرة العنز في عنفوانها والمطر المتهاطل به مدراراً، والرياح تكاد تجمد الأصابع وتكاد العـاصـفة القـاصـفة أن تجـرف الخص وهمـا يتـحـادثان وفي

جلسة عمل يستعرضان المواد الصالحة للتصدير والتوريد من الأغنام والجمال والبقر والأصواف.. والفواكه المجففة من النقل ومواد الخشاف والعطر والأخشاب والأعشاب والقرنفل وحتى الذهب والفضة والحلي من الخلاخيل والدبالج والفصوص والفيروز والعاج، كل شئ عندهم قابل للإتجار والتعامل.

العاج من بر بعيد والمستكة والجاوي والقماري من جاوه وما حولها، ومن (مدينة مصراته) تشحن المراكب أوالقوافل العباءات والجرود والكلمان البدة والطواقي بنوارة ومن تاورغاء التازير والحصير ومن جيل نفوسه وغريان الحلفاء والزعفران ومن مسلاته أنواع الزيت، ومن غدامس أجود أنواع الجلود، ومن الجبل الأخضر عسل النحل والفخار من نابل والنفه من جربه ومن اسطنبول ومن إسكندرية بضائع منوعة.

وكان متلفلفاً في برنوسه، هذا البرنوس ورثه من جده ولا زال محتفظاً برونقه ولمعانه ووبره وشراريبه الحريرية وصاحبه قابعاً منزوياً بجبته الاسكندرانية وذلك بزعبوطه المغربي قالوا إن جده حضر به عرس ومهرجان الباي أحمد باشا وهذا البرنوس العتيق شهد تاريخ الأسرة ولا يبخلون بإعارته للأعراس، يدخل به العريس الذي لا برنوس له ماشياً

كطاووس جميل في ليلة الدخلة والجلوة، وقبيل الخلوة، ثم يرده ويعيده بعد أسبوع مع الشكر لأصحابه.

وهذا البرنوس تخبأ فيه طفل صغير فرحين به في حضن جده.. وها هو بعد سنوات طوال يتلفلف به وغدى هو أيضاً تاجراً ربما أصبحت ثروته المكسوبة والموروثة أكثر من أبيه وجده، لكنه أكثر منهما حذقاً وشطارة وإمساكاً وحزماً.

فقد باع جده في إحدى الأزمات شيئاً من أملاكه وأشجاره، أما هو لم يفرط في شبر من أرض ولم يمهل غرسه وأشجاره.

وأخرج التاجر الحذق كوتي الدخان أو علبة الصفيح الصغيرة المحلاة ذات اللون الزاهي الذي لم يبهت وبه صورة الملكة تريزا أو ملكة النمسا، لو رأها هواة التحف لزايدوا عليها. وأخرج ورق اللف.. بافرة، وقطع ورقة بدقة وأناقة ولا أصابع عازف بيانو أو مرود دقيق في حركته وحشي الورقة بالدخان ليصنع منه «سبسي» ويرمها برمات وتأنق في برمه.

ولا برم أطراف شنبات وشلاغم مباهي بشكله وكان هناك الكانون بلهبه وكم يتحمل الطين من الجمر واللهب.

وأخرج علبة الوقيد طويلة العيدان قبل الاستغناء عن الوقيد بالقداحة البنزينية.

وبتؤدة أشعل العود بعد أن حكه وشطه أيضًا بقوة ونفخ نفخات زافرة.. وتعالت وتواثبت حلقات الدخان دوائر وخطوطًا تخلق جوًا ورائحة تهدئ أعصاب المتكيف.. وهنا في لحظة مباغتة بعد أن حك عود الوقيد رمى وطوح بعوده كأنما حكه العود وتطويحه جرسًا أيقظ صاحبه ونبهه.

أثاره العود المطوح بعد أن أدى مهمته ونظر صاحبه وشريكه إليه وهمهم مجمجمًا مدمدمًا، ولا حصان جموح نخسوه في جنبه، وقال:

- اسمع يا صاحبي.. فضت الشراكة!!

كانت مفاجأة.. صدمة غير منتظرة، ما صلة هذا بالحديث الذي يديره في توادد وتفاهم؟

- لماذا.. هل لا سامح الله اسأت إليك؟

هل نقل إليك الواشون وشاية؟

- لا.. لا وشاية ولا نكاية.. وأنا لا أستمع لكلام الناس.

- إذا ماذا حدث.. هل أردت الاتفاق مع غيري!؟ لا بد أنه

الحاج المنطلس الذي عزمك على العشاء ولم يعزمني لا بد أنه اتفق معك وتتركني بعد أن اتفقنا وربطنا الحبال.

- لا حبال ولا خيوط.. فضت بيني وبينك الشراكة لا أتعامل معك.

- وهل تنسى الماء والملح؟.

- لا ملح ولا زيت.

- يا سيدي المعاملة بالتجارب هل كنت مديونًا لك ولم أسدد الديون.. هل أعطيتك وعدا ولم أفي؟ هل قالوا لك عني أنا نصاب وإلا قفاص... زبرطعي، لا بد أن توضح ولكل شئ داع وسبب.. ما هذه المفاجأة وأنت رجل صادق من أهل الحزم والعزم وعندك كلمة.

قال له:

- سيدي.. نسمع على بعضنا الخير.. مع السلامة وأراد أن يقف ومد مخابش يده.

ولكن صاحبه أصر قائلاً:

- لن أمد لك يدي حتى تقول لي شارحًا موضحًا ما هو الدافع لهذا!؟

- قلت مع السلامة فضت الشراكة لا يمكن أن أتعامل معك.

- هل سمعت عني شيئًا ما آفة الأخبار إلا رواتها والله

سبحانه حذرنا من سماع الوشاة.. والأخبار المغرضة «أن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا».

- صدق الله.. لكن لا خبر ولا وشاية إنما عن قناعة وشاهد عيان.

- شاهد عيان إلى هذا أي شاهد.. نورني الله بنورك.

- أنت شاهد علي في ماذا؟! لن أغادر المكان حتى توضح.. هذه ليست أساليب عشرة ومعاملة قال له باختصار.

- أنا لا أتعامل مع مبذر مسرف متلاف لا يعرف قيمة الشئ.

- كيف.. ودارت به الدوائر وأجاب.

- إيه أشعلت عود وقيد.. أفسدت عود كبريت الكانون ها هو موجود بيننا مشتعل ولهبه يكاد يحرق برنوسك أفسدت عود كبريت لا يصح كنت توفره.. لكنك.. مسرف مبذر، لا أتفق مع من لا يعرف الاقتصاد، كيف أتعامل معك وبضاعتنا مشتركة؟

فضت الشراكة، وقام مودعاً متلفلفاً ببرنوسه، وخرج صاحبه يلفه الصمت.

مباراة في البَوْس

_ 1 _

كان «مشكور عبد القيّم» في منصب كبير، صعد إليه، أو هبط إليه المنصب، في فترة مُحلْوَلكة كثر فيها الصعود بواسطة الهبوط، وصل بحاسته الشمشمية على جسر يوصل كل هماز مشّاء بنميم.

وتفتحت لديه جميع حواسه التي لا تتصل بالعقل والفكر، عاد بعد ثرائه المفاجئ مخلوقًا حيوانيًا غابيًا، إلى الغابة نسبته، ويستولي على ما يريد بالمخالب الطويلة، والأساليب الدهليزية أصبح شبقًا، نِهمًا جنسيًا وماليًا، يبحث أو تشده سيئات متعددة: الطاس، والكاس، والماس.

يتجرع «الشمبانيا» و «الويسكي» من أغلى وأعتق الأنواع، أكثر مما يتجرع فقراء قريته والمساكين من أقاربه من الشاي المر، أو من الماء بالطحالب، هجر قريته ولم يعد إليها، لم تَعد بالنسبة إليه إلا مجرد إضافة في شهادة ميلاد، أو طفولة يريد أن يمحوها، وشرى « ڤيلا» ثم «فيلات»، خصص أكثرها ترفًا وأناقة للياليه المخملية المترفة يعربد فيها هو ورفاق الليل.. أو ما بعد منتصف الليل، أشرف مهندس خاص على توزيع الضوء الخافت وتسلل الأشعة ما بين المسارب والفجوات،

واختار تنسيق قطع الأثاث.

كان المهندس المتفنن مختصًا بالإثارة والإنارة، جلب قطع الأثاث والأرائك والمساند والتحف والثريات والنجف من روما، والدانمرك، والسويد وباريس وهونولولو.

تتدلى الثريات والنجف من أرقى أنواع «الكريستال» تعكس الأضواء والأشعة بصورة جمالية خلابة وتدوس الأقدام أو تغوص على الأبسطة العجمية من أصفهان.. وشيراز.. وتبريز وقاشان، وما وراء السد ووراء النهر.. حتى هارون الرشيد المظلوم تاريخًا لم ير مثلها ولا عاش في أجوائها. في الردهة والصالة والبهو جغرافية العالم من تفنن الأصابع وإبداع المتفننين.

وتجاوبت الضحكات حتى من نكات باردة أو تافهة لا تثير ضحكًا.. وتوالت الهمسات والنظرات الليلية بين جدران هذه الأركان من فئة أدمنت العبث وخدرها اللهو غير البريء.

و «مشكور» عبد القيم» مأزوم داخليًا رغم فَواح العطور وشذى الزهور ولمعان الجواهر وتلألئ اللآلئ وأصباغ الألوان وانتفاخ الجيب، انكمش عن حليلته وبردت العاطفة مع زوجته لم يعد يقربها، لم تعد لباسًا له، ولا هو لباس لها، اشترى لها

في إحدى المناسبات فستانًا بألف جنيه، يوم أن كان الألف رقم له وزن وقيمة وحسبان قبل سُعار الأسواق.

وعند توالي النقنقات والمنغصات جلب لها في عيد ميلادها المجهول العام والرقم معطفًا بالماس مُرصعًا، لكن لم يعد يقربها ولا يستدفئ في فراشها، كانت قد شاهدت المعطف أو صورة المعطف والإعلان عنه في إحدى المجلات التي لم يعرف ولا هي تعرف جملة واحدة من لغة المجلة.

أشارت بإصبعها وهز رأسه، ولبي الطلب السهل هدية أو عطية أو استرضاء أو رشوة الزوج لزوجته ولعلها هي الرشوة الحلال، في عالم الرشاوي البغيضة. بادر بشراء المعطف الماسي المخملي علها تسكت وتتغاضى ولا تشنع عليه، تغلق فمها أو تغمض عينيها أو تسد أذنيها عن الهمسات والشائعات التي بدأت تتسرب عن سلوكه وسيرته الليلية ولا تنكد عليه عندما يعود مترنحًا متطوحًا، يهذي بكلام يستحي منه الشيطان عندما كان الشيطان يعرف الحياء والانزواء.

كان يعطيها في الفراش ظهره ويغط مُشخرًا في نومه مُنهكا.. مهلوكًا كثور شارف وعجوز خرع.

عند الفجر يعود سكرًا مترنحًا، يتلعثم لسانه وتتلعثم رجلاه. ينتـقم من الكأس الفـارغ بالإزاحـة أو التـحطيم وينتـقم من الكأس الملآن بشرابه وعَب ما فيه يتجرع الشراب، كأنما هو شُرب الهيم لا يرتوي، كأنما مطابق للوصف المأثور:

لا يحب الكأس فـارغًا، ولا يـطيق أن يراه مـلآنا.. لا يصبـر فيبادر بصبه في جوفه ولا بأس من ثرثرة تُسمى سمرًا، وإن كان هو ورفاقه في الليل الصاخب لا يذكر شيئًا من أسمار الأمس، تتلاشى كدخان أو خيوط ما ينفثون لا صدى، ولا مدى، ترى كم تبلع أجواف هؤلاء كأنهم بلاعة عميقة الغور.



وعندما تزوم زوجته.. أو تهمهم وتغمغم من كابوس غمتها هنا يحتج على احتجاجها، ويرتج من كلامها ويهدد باليمين البغيض الذي يكون شفرة حادة لقطع ما تبقى من أصرة وخيوط.

- ألم أقُدم إليك وأغدق العطايا.. أغلى الثياب وأحلى الفساتين.. وأندر الفصوص والدبالج.

- لكنها ثياب وهدايا لا تدفء.. باردة في سرير مهجور.. ووسادة لا تتحرك ولا تنزلق إلا من أرق ممض أو ارتباك

ممل.. أو نعاس وسبات متقاطع أو نَوْشة مرفق متقلب، وهل خُلق الفراش للنوم والنعاس فقط أيها الرجل العاق.



وفي فترة من حوالك الفترات النفسية ضربه الشك وحاصرته الوساوس والهواجس، والمعربدون بطبيعتهم أقرب الناس إلى الشك والوسوسة.. وتوهان الأوهام، وضَرْب الأخماس في الأسداس، والأسباع في الأثمان والأصفار في الأصفار.

نوعان دوماً تحاصرهم دوامة الأوهام والوساوس:المتزمتون جداً.. والمعربدون جداً..كلاهما طرف نقيض من ناحية، ولكنهما من ناحية أخرى يلتقيان في نقطة، كلاهما أكثر الناس شكاً ووسوسة ووهماً وأقربهم إلى هلوسات الوساوس والهواجس وعدم الطمأنينة أو الاستقرار النفسي.



طرد الشاب الخادم من البيت لأنه كان حلو القسمات أنيقاً وسيماً يحمل عافيته، أو تحمله عافيته وهو يشك في كل وسيم، ولو كانت زبيبة الصلاة في جبينه، أو أثر الصلاة في جبهته أو المسبحة بين أصابعه.

ويقول.. الشيطان شاطر.. وحرّم على جنس الذكور الأجانب بعد المراهقة والبلوغ ولوج البيت على الأقل أثناء غيابه، وعدم تواجده وهي سيدة البيت وأم البنين حرمت دخول جنس الإناث الصغيرات من الخادمات، وبادلته خوفاً بخوف وحيطة بحيطة، أو شكاً بشك، وتراشقا الاتهامات الصامتة، وغدا البيت عاملاً من عوامل التوتر النفسي والقلق الحسي.

كان «مشكور عبد القيم» يشك فيها وكانت بريئة، وزوجة مهيضة الجناح وكانت تشك فيه ولم يكن بريئاً ولا طاهر الذيل.



ضبطت معه صوراً فزعم أنها لمعجبات وضحكت، وتزايدت أوهامها، وسخرت من كلامه ومبرراته التي تشبه كلام مُدافع فاشل أو مترافع أجوف. تُرى هل هن معجبات بشكله القردي، أم بلكلكة لسانه، ووكوكة إلقائه أم بنبرات صوته التي تماثل قطاً متخون الجراح في ليلة شاتية باردة، أم بأذنيه المُرْتخِيتين مثل قفة سعف تهرأت أطرافها. وتساءلت.. تساؤل الإنكار.. مُعجبات!؟

ولم يكن مطرباً في أعراس، حتى في أعراس ومناسبات تختلط فيها الأصوات، من أحسن الأصوات إلى أنكر

الأصوات، ولم يكن ممثلاً ولا صاحب ريشة ولا قلم ولا عنده موهبة الكتابة حتى يزعم أنهن من قارئات! وطرقعت بفمها طرقعات وكأنها قنابل صغيرة موجهة إلى أكاذيبه، ومبررات زعمه.

- معجبات بأي شئ يا حسرة.. يا حظي التعيس.



لكن نفخه أو تضخمه قد تدفع إلى إدعاء الإعجاب الداعي إلى الحيرة والعجب، وقد جدد شبابه - وتطيّن في «مونت كاتيني» وصيف في «فيشي» واتخذ له معلماً للرقص ومعلماً ومدرباً للسباحة والغوص والطفو: أما معلمة الرقص - كان الله في عونها كانت تُركل منْ قدمي هذا التلميذ الذي يلاحق الخمسين - أبلد زبون أو تلميذ شاهدته في تجاربها الرقصية.. أدمى قدميها من عفصه ورفسه ومواصلة ركله الذي سماه رقصاً.

وكادت ترد له ما دفعه من ثمن الحصص أو الغصص لولا الحاجة، لعنة الله على الحاجة والعَوز، لولا هذا ما تحملت رؤية أمثال هذا الجلف الأهوج المتظارف، خفيف العقل ثقيل الجيب، كان الله في عون من تقع في كارثة الرقص معه.

أما مدرب السباحة عندما جذبه مرة عند الشاطيء كاد يغوص معه في القاع، ومدرب السباحة هرب من البحر والشاطيء وتوارى طيلة أيام الصيف لئلا يعاود تدريبه فلم تُخْلق هذه الجثة أو الهامة للعوم والبحر، كانت من هوايته وغوايته تصيّد النسوة الأجنبيات من طينة معينة، لكن عندما تدور رأسه وتتداخل الرؤية وتتعثر الكلمات وتتلعثم -عنذاك- كل الطبقات في عينيه الملتهبتين سيان أو سواسية.

- 2 -

وأقام «مشكور عبد القيم»، في مناسبة من المناسبات أراد اهتبالها - أي انتهازها - حفلة صاخبة مُصخبهة هائجة في «ڤيلته» الخاصة، ودعى زملاءه ممن هم على شاكلته.

إن الطيور على أشكالها تقع والبغال بأشكالها تقع وتتعثر، وبلغت درجة الحرارة والالتهاب في مباراة ومسابقة غريبة.. بلغت حدًا عجيبًا، سباق ليس كسباق الخيل، ولا سباق الهجن ولا من أنواع المباريات الرياضية المعروفة المألوفة ذهنيًا.. أو بدنيًا، إنما هو سباق ومباراة تفتقت عن الذهن الثمل، أو تفتقت عن الغريزة الهائجة المائجة، سباق في القُبلات، كل قبلة بخمسين جنيهًا، القبلة الواحدة طرقعتها بخمسين.

ويظل يدفع ويدفع.. إلى أن يدهش وتتعب الشفاه أو الخدود والوجنات.. أو يخسر الرهان، والمبلغ تحوزه وتستولى عليه عارضة الخد والجبين، وعارضة العِرض، وهل تتعب أو تمل الشفاه والخدود، رهان، سباق، وأيهم أطول قُبلة، وأقصر قُبلة.

ويا ليل المُجَان.. ما أغربك.. ما ألعنك.

وثلاث قبلات أو أربع .. في تلك الأيام بحسب العُملة ومقدارها آنذاك كانت راتب وزير.. أو مدير جامعة أو مرتب سفير، قبل أن تهبط مستويات العُملات لكن «مشكور عبد القيم» الهائج المائج كان غير معتمد على الراتب والماهية الحكومية الشكلية إنما البركة في المستور.. المطمور. المصاريف السرية.. والمظاريف الحلزونية.. وما وراء العطاءات وما يؤخذ في السر يدفع أحيانًا ويُصرف في السر.. وهاجت الجماعة وماجت ومُجُنت في ليلة الرهان والسباق تمنوا لو أن الشمس لا تطلع.

- 3 -

ولعلع الهاتف في بيت الزوجة التي كان يعطيها ظهره عند منامه.. هذا الخرتيت.. أو بقايا ديناصور محنط منذ أمد تطاول.. لم يقبلها.. لم يلاطفها، ولم يداعبها.

جفت القُبل وماتت المداعبات والملاطفات وتهرأت الضحكات في البيت، كأن العاطفة عرجون يبس أو ماء غاض أو بخار تلاشى.

وكانت روح الحقد، أو بدافع الخسارة في المباراة البوسة والمسابقة الشاذة وعامل الانتقام والبغضاء والتشفي قد دفع أحد المتبارين إلى أن ينتقم للمغالطة والمنافسة، هل كانت إحدى القبلات والبوس أطول أو أقصر.. قولان.

وخلاف شجر بين السُكارى، الحيارى، وتسلل الموتور المتشفي إلى غرفة أخرى، ونادى بالهاتف طالبًا النجدة. أو شاهدًا للفضيحة أو هدّ المعبد على رؤوس الجميع:

(عفوًا.. في سَوْق التشبيه معبد) المقصود معنى المثل لا تشبيه المكان.

والأجدى بالتعبير، أعمدة المومَسة على الجميع هَد المعهرة على الجميع.

– آلو.. أنا فاعل خير.. وناصح.. فلان في وضع وحالة يجب أن تشاهديه.

وبسرعة خاطفة أملى على زوجة « مشكور عبد القيم» العنوان لترى حالة زوجها.. رجلها. وهُرعت تنهشها ألف حيّة

في صـدرها، وصـاح الذي اسـتـدعى المرأة هاتفـيًـا بحـلاوة السكرة، أو بحـلاوة المَكْرة - وهو يطرقع بإصـبـعـيـه مـثـيـرًا للانتباه ويُصفر بشفاتيره:

- يا جماعه.. يا هوه.. الليلة.. مفاجأة مباغتة موسم المفاجئات كبسة.. على عينك يا تاجر قُبلة بخمسين.. عندى قبلة بمئة، اللي ما يشتري يتفرج.. إلا دو.. إلا أونه أين صحافة الفضائح!؟

- 4 -

وفُتح الباب على الغرفة البنفسجية.. وصالة البوس والقبلات الملتهبة، وصُعق حضرة الغارق في وحل سفاهته وطين رذالته، كثير المال صغير القيمة، ورأى صاحب الڤيلا الصاخبة والليلة الماجنة زوجته.. كادت أن يغشي عليها من هول الصدمة كان مجيئها أثر المحادثة الهاتفية.

جاءت هارعة لمجرد رؤياه والتأكد.. ولتراه متلبسًا بجريرته، وهو بدوره وجدها فرصة لاتهامها. لا بد أنها جاءت مع أحدهم وإلا كيف عـرفت الطريقِ إلى حـفل مـبطّن بالسـر والأسـرار، اتهمها ليبرئ نفسه أمامها، وإن كان قد خَشى أن يشاع هذا عند مجموعة أخرى.

في الصباح كان يوقع يمين الطلاق ويطلب من جهات الاختصاص التي تسانده أن تريحه وترحم أعصابه وتعينه سفيرًا، أو ملحقًا في بلاد هادئة من البلدان البعيدة - في اليابان أو هونولولو أو مندوبًا في لوس أنجلس أو جزر السندباد.. أو أي مكان بعيد وهادئ لأن زحمة الأعمال تقلق أعصابه.

هل عندك ديب !؟

كان سمسارًا وصاحب مطعم على الطريق الساحلي ويعمل في أكثر من مهنة مادام فيها مكسب وربح، هلوع غير قنوع، القناعة لا تعرف سبيلاً إلى نفسه يريد أن يحوز أكبر ثروة في أقل وقت وأقصر مدة وبأقل مجهود.

يقدر الناس فى نظره وميزانه بما يملكون من ثروات. أما الذي لا يملك مالاً فهو عنده هباء وهُفك وضايع لا وزن له عنده مُقتر حتي على نفسه، ولا يعنى بملابسه قد يلبس العامل عنده والأجير والنادل في مطعمه أحسن مما يلبس هو، تخرط طاقيته المعبسة بالموس كما يقولون في الأوصاف والكنايات أو أسلوب السخرية والمداعبات، يرقع حذائه حتى يكاد أن يصبح كله فتوقًا .. مثل قميصه الذي طارت بعض أزراره، لم يُعنى بتعليم أبنائه ودفعهم من صغرهم إلى السوق ليتربّوا هناك ويتعلموا أصطياد الأرباح والمكاسب هَمه .. همومه .. رغباته.. آماله كلها تدور حول تصيد الأموال أو توظيفها وتحريكها للتوالد والتزايد.. فالمال الذى لا يزيد مع الأيام والثروة التي لا تكبر يراها شيئًا ميتًا أو مجرد كم مهمل.



لبس بعضهم من مجموعة أفاقة لباس بلدان الجزيرة، ارتدوا جلبابًا.. ودشداشة وعقالاً..

وقلدت في فبركة صناعية لهجة مع أنهم لم يزوروا تلك المناطق والبلدان حتى مرة، إنما هو من أثر تقليد المسلسلات الهابطة الوافدة من برامج مسموعة ومرئية، يخرجها ويجلبها ويفرضها في السوق سماسرة وسطاء أساءوا للفن والإبداع.

مع أن أهل تلك المناطق لديهم نشاط أدبي وفكري وفني له أصالته وقيمته التي لا تنكر، لكن ما صنعوه من تحايل ولوي الأشداق كان بدافع الاحتيال.. وقالو لصاحب المطعم:

- يا حاج.

وهو قد حج بواسطة ومجانًا.. لكن لصق بهُ لقب حاج، لصوق حرف دال من أصحاب الشهادات المفبركة أو المزيفة، وفتح الرجل عينيه العمشاوتين وفمه الأهتم الأبخر.. وكأنه مرتبط بمشروع تثاءب دائمي.

- ماذا.. آش قلت.

- هل عندك ديب.. نريد ديبًا ضروري.

- تقصدون لحم ديب!؟ عجيبة.

وتساءل كيف.. ومن أي البلدان أنتم!؟

وسمعه أحد المثقفين من زبائنه وضع قرطاسه على جنب وسأل:

– كيف هناك من الناس من يأكل الضفادع في أوروبا خاصة أحسن مشوي وشوربة من الضفادع، هذا ترف وشيء غال.

وبعض من الناس يأكل الجراد من الجوع والفاقة وحدثه جده أنه حضر عام يسمى الجراد.. أكل الناس الجراد من شدة القحط.

وعام الفكريس!

وهناك في بلدان آسيا من يأكل السلاحف والقواقع وأنواع البلبوش – والبازوزي، بل هناك في الصين وكوريا من يأكل أنواعًا من الثعابين الكبيرة والحيات.

وانصرف الرجل بقرطاس وهو يستغرب كيف يؤكل الديب.

واستغرب صاحب المطعم أيضًا قبل أكله كيف يتحايل عليه ويصطاد، هل بشبكة أم منداف أو بتصويب سهم .. ثم كيف يذبح. أي جزار جرئ هذا، وهنا أجاب الفتية المتقمصة صورة زوار أو سواح أثرياء.. وقالوا في لكنة معوجة وعربية لو سمعها سيبويه والأصمعي لاحتاجوا إلى ترجمان:

– معالي السفير يريد شراء ديب.

وطبعًا لم نسأله ما يصنع به هل هو للأكل أو الفرجة أم إرساله هدية لأحد الأعزاء عليه، وهو مستعد أن يقدم ثمنه ثلاثين ألف ويزيد.. بشرط أن يكون الديب سليمًا معافى ليس به هبشه أو عضة ولا ملصة أذن ولا مقطوع الذيل ولا بأس بعرضه على طبيب بيطري ألم يخاف الطبيب ويهرب.

- ماذا يصنع به؟
- لا نعرف لكن هو طلب شراء ديب وهواية هؤلاء الأثرياء أصحاب الملايين لا تقف أمامها الأموال والأرقام.. عندهم الدفع لا يهم.. شيء بسيط.

هناك من الهواة الغواة من اشترى حصانًا أعجبه ودخل في مزاجه بمليون.. بل وثلاثة ملايين.. وهناك من جُلب له باز ونسر بنصف مليون.. وهناك من اشترى بعيرًا راق في عينيه بمرتب وزير أو أديب كاتب طوال عمره، سيدي المال منساب بين أيديهم، وأكدوا لصاحب المطعم على الطريق الساحلي ذلك السمسار الهلوع قائلين:

- وحكاية البحث عن ديب شغلتنا ويهمنا أن ننفذ أوامر ورغبات السفير ولو طلب حليب الغولة.. أو لبن العصافير أو ريشة من عُنق العنقاء..

وبدافع البحث عن الربح من الصفقة سأل:

- كم تدفعوا لو عثرنا على ديب؟

- ثلاثين ألف عدًا ونقدًا.

ورَدّ في دخيلة نفسه.. يالها من صفقة، ثلاثين ألف أكثر من بضاعة سوق الحوت بشوادره أو فيل بنابه العاجي وحمولته ونقله بحرًا أو برًا من بلاد تركب الأفيال، ثلاثين ألف جنيه .. تُرى هل هي مجرد هواية وماذا يصنع به وماذا يستفيد منه، قالوا إن امرأته يهمها، وسيادته من نوع لا يرد لزوجته طلبًا.

- عجيب ! يظهر أنها تتوحم عليه .. وعالم الوَحَم فيه عجائب وطرائف.

- يظهر إنها ملت من هواية العقود والجواهر المهم يريد شراء ديب ولو صغير ويكبر بعنايته ورعايته، وحنانه.. هو صاحب قلب رقيق على الحيوان، قد يعمل له ركنًا خاصًا في حديقته ويعيّن له حارسًا موظفًا.

- يظهر إنه تسلية.. ما اعرف.. هؤلاء الناس الكبار والأغنياء خاصة الغناء المفاجيء أو الغناء الفاحش لا يُسأل عن تصرفاتهم وأسبابها هم يلعبون بالفلوس، يظهر إنها جاءتهم بسهولة وتتبدد بين أصابعهم بسهولة.

قال السمسار في نفسه:

- يلعبوا بالفلوس ولاد ... المهم نكسب من لعبهم ترى حكاية الديب هل نستطيع أن ندخل في قلب الشاري أو الوسيط ونستفيد من شركة أو مؤسسة في بلاده.. ويكون طريق صفقة أخرى!



وقدّم له الشاب المتحاور معه بشأن الديب مبلغ خمسة آلاف جنيه عَدًا ونقدًا..

- ما هذا !؟

- لتعرف أننا جادين صادقين.. مقدم عربون نحن لا نعرف المزاح أو العبث.. المهم ديب ونشريه بأي ثمن تريد لكن في بحر أسبوع قبل أن يسافر معالي السفير الوسيط أو يستدعي لمهمة عاجلة أو يُنقل.. أو يطوح به.. وهؤلاء وأمثالهم عرضة للتطويح والتمرجيح. وما تعرف كيف اتجاه الريح عندك صفقة بين يديك لا تطيرها.



وفكر الحاج صاحب المطعم الساحلي وهو يهز رأسه ويزوم كقط أجرب، وأمامه الخمس آلاف جنيه، هل وثقوا فيه هكذا، مع أنه لم تكن بينهم معاملة من قبل.. هكذا بلا سند ولا

إيصال ولا شهود، هل بقي في الزمن اللاهث الأغبر أحد يتعامل بالذمة.. والكلمة..

ولا شك أن مبلغ الربح سيكون أضعافًا، وسيجد من يكتفي في بيع الديب بمبلغ يسير، سيبحث عن أعرابي مغامر، أو يذهب هو يومين إلى البر، قد يصطاد ديبًا صغيرًا، المبلغ حقيقة يستحق المغامرة والمقامرة.

همس أحدهم، وهو شاب له عثنون مسبسب مثل أصحاب العثانين في المسرح الكوميدي:

– يظهر عليك يا حاج الدهاء والذكاء والنبوغ، باين على جبينك.. وجاك الخير، نمر عليك بعد أيام.

- 2 -

غيروا هيئتهم ولكنتهم، وأزال صاحب العثنون عثنونه وصاحب السوالف سوالفه، وما زال صاحب المطعم السمسار مشغولا بالبحث عن ديب. ولم يجد من يصطاد له ديبًا أو من قال عندي ديب.. بل كلما سأل في تلك الناحية.

– هل عندك ديب.

– كيف أعثر علي ديب !؟

ضحكوا ساخرين منه، هازئين به. هل تطير منه الصفقة، وقد

قدموا له العربون وسأل، قالوا حديقة الحيوان للفرجة وبها ديب واحد.. يبحثون له عن أنثى.. أو ينتظرون هدية من إحدى الحدائق العالمية أو مبادلة بحيوانات أخرى، أما حديقة الحيوان في البلاد؛ فالمسؤول عن الفرجة والسياحة لا يفرط فيما لديه من عهدة وأمانة وهل معقول تُباع حيوانات الحكومة. وأخذت التعليقات تتوالد، قال بعضهم: لا بد أنه سيستعمل الديب في عملية سحرية خرافية، وقال آخرون تهمهم أمور الصحة، لا بد من مراقبة مطعمه، وصنعوا له أحد الخدم أو الجراسنة عيناً، فقد يغش الزبائن فيقدم لهم لحم ديب، أما وجدوا منذ سنوات من قدم لهم الهررة والكلاب والحمير، ابن الهلوع يريد أن يثرى بالغش.

تململ صاحب المطعم هل تطير منه الصفقة، بقية المبلغ عشرين ألف جنيه مكسباً، لا بد أنهم سيعودون لأنهم دفعوا المقدم وزادت حيرته وربكته، إن سأل عن ديب وكيف يصطاده أو يجلبه شراء سخروا وإن سكت ضاعت الصفقة.



بعد أن أكلوا سأل أحدهم من المجموعة:

– هل عندك يا حاج شوية عضام؟

- لماذا؟ هل عندك كلب.. أو مربي قط؟

- لا.. بل عضام أكثر.. من أكل القط والكلب، حاشاك أنا مربي ديب.. موصتني أمي على ديب.

- هل عندك ديب للعب مثل لعب القردة والدببة في السيرك المتجول أو السيرك الثابت، أو السارحين بالحيوانات المدربة في بعض البلدان.

- شوية عضام بعشرين جنيه!

- لا بأس لكن أريد شراء ديب، لازمني ديب.

قال الشاب:

- لا يمكن بيعه يا سيدي لأنه ديب من نوع نادر يكاد ينقرض من سلالة عالية.

- ما سمعنا أن الدببة تنقرض بل تتزايد وإن صعب صيدها.. وما سمعنا أن هناك نوعاً عالياً راقياً من الدببة، الحيوانات المهددة بالانقراض هي التي تصطاد.. ولها في أوروبا جمعيات للمحافظة عليها والرفق بها.

- المهم عندنا ديب نادر من فصيلة وسلالة ممتازة ومربيه على إيدي من صغره. يسمع الكلام ويفهم بالإشارة، ولا يسرق دجاج أو أغنام الجيران، له فرو جميل أجمل من فرو الثعالب.

- اسمع يا شاب الحكاية عرض وطلب كل شيء يباع حتى الماس والجواهر، والتحف النوادر، فضلا عن ديب كم كلفكم!؟

- إيه شيء عزيز علينا لا يباع ولا يوجد مثله في أي حديقة حيوان، هو ديب صارفين عليه.

- على فكرة هو ديب ولا ديبة!؟

- بل هو ديب ذكر غير عقيم.

- كيف عرفته ديب غير عقيم!

ومهمه في جوابه وقال:

- يا حاج أنا ربيته على يدي مؤدب مهذب.

- لكن مخالبه خطيرة.

- لا.. بل تحضّر وتمدن.

- وما فائدة ديب تمدن؟

- على كل حال هات العضام وان شاء الله معرفتة خير، وكل أسبوع نمر عليك حرام نخلو الديب مسكين جوعان.. اسمع يا حاج هو يفضل عضام الضان الصغير على عضام البقر والثيران.

وهز الشيخ دحروج رأسه وهو يستمع لجانب من ثرثرة الشاب مع السمسار وانزلق الشاهد النحوي علي لسانه:

عوى الذئب فاستئنست للذئب إذ عوي
وصوت إنسان فكدت أطير

وقال الحاج للشاب قبل أن ينفلت للطريق:

- ما تأخذ إلا عضام الضان الأصلي، المدبوح دبيحة شرعية، وإن كان تريد عضام عصافير أهيئها لك.

- لا.. الديب لا يحب عضام العصافير...عمرك سمعت ديب يطارد عصافير.. نريد عضام يا حاج.

قال الحاج صاحب المطعم والباحث عن ديب:

- يا شاب ما رأيك أريحك من متاعب الديب هل تبيعه لي!؟

قال الشاب: بخمسين ألف.

- لا .. ومن أجل خاطري وقد اشتري منك ديبًا آخر.



واستقر الثمن على ثلاثين ألف عدًّا ونقدًا.. وضحك وهو يحسب الحسبة.. مهر ومصاريف أكثر من عشرين عروس أيام زمان، الزمن تطور يا سيدي والأسعار شايطة فيها النار.. وهذه صفقات بالهمة بعيدة عن دوائر التسعيرة، شيء فوق العادة، وأنقدهم ثلاثين ألفًا مع تبرع بقهوة وحلف أن ثمن الفاكهة لن يأخذها.. لكن لا بأس من ثمن ما هضموا وفوق القهوة

أعطاهم شوية عضام وبطاقة بعنوانه، مع أنه معروف للسابلة على الطريق الساحلي، سلموه الديب صغيرًا في شكارة، كاد يهبشه عندما أخرجوه من الشكارة وليدخلوه في قفص أعده الحاج بالمناسبة، وفرك يديه يحلم بربحه، تسلم عربونًا خمسة آلاف، وسيبيعه بخمسين ألفا لحضرة الباحث عن ديب، اشتراه بثلاثين ألف.

رغم متاعبه وطول بحثه هو الرابح في هذه الصفقة. أصحاب السوالف والعثنون واللهجة واللكنة الغريبة الذين سيشترون منه الديب وعدوه بالعودة والمجيء إليه لاستلام الديب، الحمد لله سيفي بما وعد سينفذ ما قرر.

وانتظر العائدين إليه الشارين للديب الذي أحضره.. وطال الانتظار، وهو كسمسار ومرباح تعلم صبر الانتظار وهبشه الديب في يده، ما أحّر وأحّد أسنان الملعون يبدو أنه سنها من بطن أمه، لا توجد حلاوة بلا نار ولا ربح بدون متاعب وجروح، وأحيانًا كسور لا بأس، وهبشة أخرى من الديب، يبدو أنه من سلالة شرسة.. وتحملها وعندما وزوزت يداه خشي أن يكون في مخالبه عدوى من الجراثيم، وذهب للطبيب لإعطائه إبرة ليعالجه، ولا بد من تحمل ضريبة الربح.. وسيرفع التسعيرة

وهو الرابح على كل حال.. ولن تشعر بهذه الصفقة مصلحة الضرائب إذ هي خارج النطاق، هو واثق من عودتهم إليه، لن يجدوا من يبيعهم ديباً غيره. دفعوا عربوناً لا بد أن يعودوا لإتمام الصفقة، ولا بد أن صاحبهم الذي سألهم عن ديب هو متلهف متربص.. هذه أشياء لا توجد في الأسواق وخارج دائرة التصنيف، هي صفقة لن يطارده أو يحاسبه عليها خبير ومحاسب الضرائب، بضاعته في هذه الصفقة ليس عليها جمرك لا رقيب.



وطال الترقب الانتظار.

أين المندوب الباحث عن شراء الديب أين صاحب العثنون والسالف واللهجة المزجاة، كيف غطس ولم يعد يلمح له وجوداً.

طار المندوب الذي لهط المبلغ، وكلما شاهد سحنة تقارب شبه المندوب والوسيط قفز نحوه وتفرس فيه، طال الانتظار وعيناه تبحثان عن صاحب خدعة الذئب والديب ينهشه كلما اقترب منه، هل يطلق سراحه بعد أن كلفه مشقة شرائه ومتاعب مؤونته.

قطط عقيلة السفير

كانت مطالب الهانم زوجة السفير كثيرة، ما دامت المصاريف والمشتريات على حساب الدولة ولن تحرك أصابعها كيساً لها أو جيباً أو صندوقاً ولن تمهر من حسابها صكاً، الأثاث والأدباش والرياش، الحشم من غير حشمة، السيارة من أحدث طراز، العلاوة والحفلات، واختلاق المناسبات «ياغمة» طيحة أعمى في دشيشة والظاهرة أو الحالة التي كانت في تلك الفترة البعيدة مثيرة للانتباه.

مدعاة للاستغراب والتعجب.. وموضوع تعليق وتندرات وأفاكيه وطرائف مجموعة القططة التي اختارتها الهانم وأحاطتها برعاية، وأطلقت عليها أسماء وألقاب شرقية عصمت، رفعت، مدحت، كاظم.. ناظم.. رمزي.. فوزي.. فايز.. ومن الأسماء للإناث لقططها اختارت للتدليع الدلال، جلبهان،شيرين، نازك، جيهان، فوزية، نورهان... إلخ. فضلاً عن.. اش اش.. أسأس.. هكذا اختارت الأسماء لقططها سواء الذكور أو الإناث والحوامل والأرامل منهن وفي تعهنج عزلت مجموعتها «الارستقراطية» الراقية عن قطط الجيران والشوارع والهوامل من المتسكعين والمتسكعات والقافزين من الرواشن والأسطح، أو المتسللين من الأزقة الضيقة، الهانم ترى مجموعتها القططية من أترك وأرقى الفصائل الممتازة... يا ويل قط يحاول أن يمرح أو يخرج من

البيت إلى الشارع أو الأزقة الخلفية مع رعاع القطط أو أوباش الهررة، توبخه في عقوبة تأديبية، وتعاقبه وتحرمه من المنام أو الطعام حتى لا تزوغ عينه ويمدّ مخالبه أو يتناول شيئًا من الأرصفة أو سلال المخلفات، إنه من طبقة أرقى، أنه من بيت الهانم، ممنوع التسكع مع صعالكة القطط والمشبوهات من الهررة، لا بد من المحافظة على المركز والحيثية وبالرقابة الصارمة الحازمة، وبالتالي يا ويل قط يتجرأ من خارج البيت ويقتحم رَدَهاتها الأنيقة ويطمع في حشر نفسه بين مجموعة قططها المختارة المنتقاة تطرده شر طردة له الويل والثبور والكش والإهانة.

وتعاملها مع مجموعتها لا يدخل في دائرة الحنان والإنسانية والرأفة بالحيوان، إنما مظهر من مظاهر الأبهة التي لا تخل من بقايا التمايز الطبقي الباشوي، الرفق بالحيوان شئ رائع ودلالة على تحضر وتدين لكنها في تصرفها كانت ذات توارث طبقي وعنجهي هي عدم المساواة حتى بين الحيوانات والعجماوات اختارت لمجموعتها بائع حليب خاص، خادمًا خاصًا.

يا ويله.. ونهاره وليله احرف إن كش الخادم على قطة شرسة، أو نهر قطًا متمردًا عنودًا.. وتحمل الخادم المسكين... تصرفات هذه العنطوزة من أجل لقمة العيش.. جعلت

للمجموعة المدللة حجرات خاصة مع تدفئة في الشتاء وتبريد في الصيف لا يجدها هذا الخادم الإنسان العائش في «بدروم» معتم أو دهليز رطب، أو في عشة فوق السطوح.

ويسمع الجيران صوتها، هي تنادي وتصدر الأوامر والنواهي وتحذّر وتنت وتعد.. وتتوعد كأنها مدرسة في روضة أو مدرس أطفال أبرياء في طابور الصباح، أو أم لديها مجموعة من عفارته فلذات الأكباد الزائطين في هرج و مرج، إيه قد يلتبس عليك في بعض الحالات بصوت دادا، مربية، ويتناثر صوتها بين علو وهبوط، وارتفاع وانخفاض مخاطبة، صفوت... رفعت... المظ رمزي.. نينا. عفت إش... إف تعالى... يا روحي... يا حبيبي. يا سمحة.



ذات مرة ايقظت زوجها وهو عميق غطيطه مرتفعة درجة شخيره.. لكزته ليوقظ السائق ليذهب بدوره ويوقظ صيدلي المدينة هناك لديها حالة طارئة مشكلة مستنفرة عاجلة وهب الرجل مذعوراً يفرك جفونه، فقد طارت منها لذة المنام وتمتم وبرطم وهو يزيح أغطيته التي كان متكمكمًا بها.. متدفئًا تحتها ويتساءل في تخوف تجوس.

- خير.... خير إن شاء الله.

وتخوف متوسوساً في دخيلة نفسه أعاصفة أم زلزال، أو سيل طارئ، أم طارت الحكومة، أم لص من الأوباش «وهل هناك لص ليس من الأوباش» تجرأ على حرمه المصون أم خربشها قط شرس.

وشرحت له سبب إيقاظه من غطيط المنام وتطير لذة الأحلام وبادر حضرة الزوج المطواع وأيقظ السائق الذي ذُعر وكظم غيظه وتوجه السائق إلى الصيدلية الرسمية المناوبة وأيقظ الصيدلي الذي كان يتمايل رأسه من النعاس ومحاصرة التعب والوسن، كان بين تثاوب ونعاس مع أنه تناول مجاناً، طبعاً نهباً من الصيدلية مجاناً حبوب وبلابع السهر، وكان يبيع الحبوب المسهرة سراً للطلاب أيام الاستذكار ومواسم الامتحان ولبعض العسس والمتسكعين المتصعلكة، قال السائق للصيدلي:

- مشكلة عاجلة سامحني.

- كل الزبائن آخر الليل للصيدليات الليلية بالطبع على عجلة من أمرهم... مثل مستشفيات الطوارئ خير إن شاء الله لا سو لا سوية.

وتكلم الخادم متعلثماً وكان نصف أبله مع أشياء من الوتوتة والوكوكة.

- هل عندكم دواء لزكام القطط المصنوع في الدانمرك أو سويسرا.

ما نطق حرف الراء في الدانمرك أو حرف السين في سويسرا إلا باحتكاك لسانه وكركرة الحرف تداخله، كأنه عجلات قطار قديم تحتك بقضبان أقدم.. ذهل الصيدلي من هذا الطلب وبادر بإغلاق الباب الزجاجي حتى كاد من الهبدة القوية والخبطة العنيفة أن يتهشم، مع إن زجاج الباب من النوع البلوري السميك غير قابل للكسر لكن هذا الوكواك البكباك الوتوات لا يكسر الزجاج بل يكسر حتى الرقبة.

وتساءل الصيدلي بينه وبين نفسه وهو يلعن هذا الزبون ومن أرسله:

هل وجدنا دواء لسكان العشائش ومتوسدي الأرصفة والمساجين والمعتقلين.

- 2 -

عين سفيراً لدى دولة أوروبية، واصرت حضرة المدام بدماغها الناشف، وعصبيتها المتزايدة أن تصطحب معها قططها العزيزة، وحاول الزوج المطيع أن يحاورها ويقنعها:

- يا مدام.. ياهانم في أوروبا قطط أحسن.

ولكن العنود الشرسة اهتبلت وصرخت، واحتجت وماءت في وجهه كشّرت وطرمت.. ومدت مخالبها أمان.. أمان. صفوت.. عزت.. كاظم .. رمزي.. رامز.. جلبهار.. نينا.. اورهان..

امان.. امان.. في اوربا غير ممكن.. يوك يوك مثلهم لا يوجد ورضخ واستكان أو استكين، هذا المطيع وشحن في المطار ما يزيد على خمسين قط وقطة كان منظراً مثيراً للانتباه ملفتًا للنظر، مدعاة للتساؤل والتعجب خاصة عندما تحدث صوتًا متقطعاً أو متواصلاً هريراً - هل سموها - هرة وهر لهذا؟ تتناوش في موءها.. مخربشة متقلبه، مرت المجموعة بسلام من مطار بلادها.

في مطار تلك العاصمة ذات الضباب المتراكم والبرد القارص، قال بعضهم مشيراً إليه: ايه.. إنه تاجر قطط، يبدو على ملامحه، من سماسرة أسواق آسيا ربما يريد بيع جلودها لتستعمل أحذية، مثل جلود الأرانب وجلود الثعالب، وقال آخر، من هواة التعليق وإظهار المعرفة حتى من نوع علم لا ينفع وجهل لا يضر: لعله يحضر مؤتمراً للقطط. قال بعضهم: بل لعله سيزود حديقة الحيوانات عندنا بأنواع منها، بل يكفي الحديقة.. قط وقطة من النوع النادر الآيل للانقراض، حتماً سيتناسلون لكل فصائل القطط الكثيرة المهارشة والنزو، وخاصة في الشتاء إذا صرمحت وجاعت، وقال آخر كان قد وضع طرف «البايب» الغيلون في طرف فمه وكز عليه بأسنانه: بل هو رجل سيرك متجول للقطط المدربة على تشقلبات

بهلوانية فنية يطوف العالم على حساب مهنته. يشاهد الدنيا مجاناً ليتني كنت مثله! وقال أحد الذين يتطوعون بالكلام والتعليق ولهم شغف بممارسة المبالغة والكذب المجاني الرخيص: قرأت عن هذا «السيرك» والسرادق المتجول إعلاناً في إحدى الصحف الصادرة في اليابان، وأشار إلى السيدة زوجة السفير بقبعتها ذات الريشة، هذه مدربة القطط في السيرك صورتها منشورة في ملصق، وفي صحف تهتم بألعاب الحيوانات. بل هو من الشرق البعيد متعهد لحوم هناك قبائل لا تأكل إلا لحم القطط، بشرط ألا تأكل الفيران. أي قطط راقية. هذا كذب ما سمعنا بهذا... هل أنت طبيب بيطري أنت عبارة عن حارس في مزلقان تنظم مرور القطارات بتحريك زر وأنت واقف مثل الأبله ما دخلك في الدواء والعلاج، وتدخل آخر من المتفرجين على الأقفاص قائلاً: من يربط الجرس في عنق القط ومن يدخل قطاً في قفص أو شكارة لا بد أنه مهرب وإلا ما هو مكسبه من مصاحبة مجموعة من القطط من بلاده إلى أوروبا.

تهامست العيون وتداخلت التَصورات وتنوعت التعليقات بينما كانت السيدة تميس وتتمايل بمظلتها كنسوة القرن التاسع عشر.

كانت المفاجئة عند الهبوط في المطار الأوروبي بعد الاهتمام من موظف الخارجية في البلد وأعضاء من السلك الدبلوماسي في استقباله الطاقم أو الهيئة هناك كاملة بحذافيرها (جمع حذفور على وزن طنبور، طرطور، صنبور، صرصور) حتى الحارس المناوب والملاحظ والفراش هرعوا للمبادرة والتعرف على رئيسهم الجديد، كل غربال جديد له تعليقه، مسؤول في المطار يقترب من ردهة الاستقبال ويسأل:

– أين حضرة السفير، أو المسؤول عن استقبال السفير؟

– أفندم.

(العبارة انقرضت من أفواه الناس لكن بقيت ملاكة في فمه من بقايا أثر قديم اندثر، وطلل تهاوى) وقال الرجل المسؤول في المطار في رقة وأدب:

– عفواً... معذرة عندك أشياء ممنوعة من الدخول يا اكسلانس.

– كيف في بلد يقولون عنه... حرية التصرف. حرية تامة.

– لكن هناك قانون وأصول وتعليمات ولوائح... وخطوط لا يمكن تجاوزها من أجل الصالح العام، والصحة والوقاية نحن حرية مع انضباط ونظام، أمور تتعلق بالصحة ممنوع منعًا باتًا إدخال الحيوانات إلا إذا مكثت في الحجر الصحي، وطعمت بإشراف طبيب بيطري، وفحصت فحصًا

تاماً.. لئلا تتسرب عدوى وميكروبات وفيروس وخاصة هناك في المنطقة هناك ميكروبات تحملها حيوانات وقد تضر بالإنسان. عندنا دراسات لهذه الحالات والظواهر «قط أو قطة لا يسمح به وأنت عندك مجموعة».

– أنا سفير.... دبلوماسي عندي جواز أحمر عندي حصانة.

رد عليه المسؤول في المطار قائلاً:

– أزاء القانون كل الناس سواسية، سفير أو غفير... أو أمير أو قسيس في دير أو دلو في بير أحمر.... أزرق... القانون لابد أن يطبق يا اكسلانس، آسف أخذت من وقتي أكثر من نصف ساعة وآسف أن أحجز القطط.

وبدأت تظهر مشاكل لم تكن منتظرة ولا في الحسبان لا بد من الحجر الصحي والمراقبة وعزل المجموعة عن الناس والحيوان في مكان مخصص وإطعامها بوجبات منظمة لئلا تموت، وتقديم جرعات من الدواء، وطبيب يراقب حالتها، وحارس أيضاً فضلاً عن دفع ثمن الأرضية أثناء إقامتها بأرض ومخازن المطار.. وكل يوم بحسابه.

– على حساب من كل هذه المصاريف چنتلمان!؟

– على حساب سيادتكم اكسلانس والدفع فوراً مقابل إيصالات وأختام معتمدة.

- أنا سفير قلت لك!

- قلت لك وأعيد وأكرر لا يهم أزاء القانون واللوائح سيان أمير وزير، سفير، عامل أجير، صانع جير، القانون فوق الجميع من أجل صالح الجميع.

وصرخت صاحبة القطط وهي تصر متشبثة إما أن يسمح للقطط بالدخول معها، أو هي بسلامتها تغادر البلاد، وعلى أول طائرة أو باخرة وهمس أحدهم في أذن صاحبه:

- على من تتشرط، ومن تظن نفسها هذه الكركوبة تهدد!؟ أغادرت أم لم تغادر!؟

- 3 -

تطايرت الشفرات واهتزت أسلاك الهاتف بين مكاتب السفارة في تلك العاصمة ومكاتب خارجية ذلك البلد البعيد:

- عندنا قطط في المطار حجزت.

- القطط تريد مصاريف وإقامة وعلاج وإطعام حتى تتم مدة الحجر الصحي، مع ثمن المبيت والفندقة.

وجاء الرد، ابذلوا المساعي والترجيات اجعلوهم يسرحوها اكرامًا للسفير وتوطيدًا لروح الصداقة بين البلدين والعلاقة بين الشعبين واللحمة التاريخية المشتركة إلخ... إلخ.

وجاء الرد.. مرموزًا ومشفرًا

- لم يسمحوا على الصعيد الدبلوماسي بالرجاء والتوسط بذلنا كل ما في طاقاتنا.

- اعملوا مذكرة بالموضوع.

وتوالت الشفرات والتعليمات، حتى قال أحد الظرفاء الأحسن أن نسميه في التاريخ الدبلوماسي والنشاط السياسي عام القطاطيس، على وزن عام الفكريس وسأل شاب صاحبه:

- ما هو عام الفكريس؟

- إيه.. أيام كان الرجال من الفرسان المجاهدين يدافعون عن الوطن ويأكلون الفكريس من النخل أيام الفقر مع الرجولة، تلك أمة قد خلت، ليت قومي يعلمون.

قال آخر:

- نسميه عام المدام الحرجانة، والسفير الهرطيل.

وتهاطلت الطلبات والردود:

- اصرفوا عليه حتى لا يستفحل الأمر أكثر.

- لكن المبلغ من بند الطوارئ نفذ.

- خذوا من بند الثقافة، وحولوا من بند التعليم لديكم أو بند الصحة.

- البند المشار إليه للثقافة والتعليم صرفت بقيته وحولناه إلى حفلة وهدايا بمناسبة تشريف مسؤول كما أعلمناكم في رسالة سابقة في الصيف الماضي... راجعوا الملفات.

- خذوا بصورة عاجلة من رواتب الموظفين حتى إشعار آخر، ويتضامن الموظفون بالدفع سلفًا من جيوبهم... يكون ذلك من الديون التي ترد بعد الميزانية.
- المهم.. عاجلاً بادروا ببذل كل جهد للإفراج عن القطط التي تخص عقيلة السفير.

وفي شفرة عاجلة أخرى سؤال:

- معاليه مهتم بموضوع حجز القطط كم عددها اعطونا صورة واضحة عن الحالة.. لا تجعلوا الحالة تتأزم بين البلدين.

وجاءت برقية الرد مشفرة بالرموز والمصطلحات.

- خمسون، هناك قطة حامل في حالة مخاض قد تضع الليلة أو عند الفجر وقد تبلغ المواليد خمسة أو ستة.
- اعلمونا بالزيادة واسعوا لدى إدارة المطار الرقابة الصحية على تخفيض سعر الإقامة للقطط، وابرزوا لهم البطاقة الدبلوماسية، والجواز الأحمر، وستكون المعاملة بالمثل وإذا جلب مواطنوهم قططًا أو جروًا ستكون المعاملة حسب العرف الدبلوماسي المعاملة بالمثل إن جاءت حيوانات مع القادمين ستكون المعاملة تمامًا.. ذكروهم بهذا.. لن تكون قططنا رخيصة وقططهم غالية.. طلب معقول للعدالة والمساواة بين المخلوقات البريئة اللطيفة.

وجاءت برقية إلى السفارة من الوزارة.

- نقترح: سرحوا نصف القطط.. وابقوا على الباقي حفاظًا على الأموال العامة من التبذير.

***

لكن زوجة معالي السفير المدام الحرجانة أصرت على أن تدخل المجموعة القططية كاملة، جاءت في شفرة أخرى.. حاولوا بالوسائل الودية أن يقنعها زوجها السفير أو اطرقوا باب زوجة القنصل لديكم بلباقتها وثقافتها تتدخل لاقناع صاحبة القطط بالتساهل قليلاً فالنسوة عادة حنونات وأكثر لباقة في المحاورة.

وجاء الرد:

- أمر خاص لا يصح تعميمه.. تبين أن السيدة مسيطرة على معاليه ولا يستطيع نقاشها وهي تهدد بالسفر.. وهي كاسرة في عينه عود.. وجاء في شفرة سؤال من الوزارة إلى السفارة!

- ما معنى كاسرة في عينه عود؟! هل تشاجرا وأدمت أو قلعت عينه بعود؟ اخبرونا عن هذا العود الذي دخل في عينه.. هل خطأ.. أم مشاجرة وهل هو أمام الأجانب.

وجاء الرد في شفرة مطولة خلاصتها:

- الحاقًا وتوضيحًا للرسالة السابقة :

كاسرة في عينه عود - استعارة - مجاز - لا حقيقة، ليس عوداً حقًا بل معنويًا.

- اخبرونا عن العود المعنوي في عين السفير وهل هذا له علاقة بالقطط.

هي كانت تصرف عليه يوم أن كان طالبًا في بلدها وعندما كان موظفًا بائسًا ويشعر بضآلة أمامها لا يرد لها طلبًا وهي غريبة عن بلده أجنبية.

وفي برقية:

- اكتموا الأمر واحذروا أن تصل حكاية القطط المحجوزة إلى الصحافة أو إلى سفارة أو قنصلية، خاصة إن كانت من الخصوم والمتربصين بنا من الأعداء أو الحاسدين.

في شفرة للرد:

- الأمر هنا ليس في يدنا تسرب الخبر إلى إحدى المجلات والقطط كانت موجودة على المكشوف، وأصواتها أحدثت حالة انتباه خاصةً عند المسافرين المتطفلين.

وفي برقية مشفرة.. أو مجفرة:

- عالجوا موضوع الصحافة: قدموا للمجلة التي نشرت الخبر هدية أو اشتراكًا سنويًا أو دعوة المحررة لزيارة البلد لتسكت عن خبر وجود القطط في المطار والحجر الصحي..

- نخشى أن ترفض المجلة.. والمحرر النزيه والصحافة عندهم لا تقبل هذه الأساليب خاصةً إن نشرت في باب الطرائف لا باب الخصومات والتعليقات.

- إذا ما دام الخبر نشر وتسربت حكاية القطط والسفير اعملوا على اخفاء الخبر و الكتابة التي نشرتها الصحف عن معالي الوزير. حتى لا يغضب معاليه من نشر الخبر في الصحف الأجنبية وجاء الرد:

-اطمئنوا معاليه لا يقرأ ولا يطالع الصحف الأجنبية وطبعًا المجلة الأجنبية لا تصل إلى دكان الحلاق عندكم.

توالت الشفرات وتبودلت الرسائل المبرقة والهواتف بين العاصمتين بين مكتب السفارة وإدارة الوزارة، وحضرة السفير وعقيلته نازلان في فندق المطار في انتظار الإفراج عن القطط. وحددوا له موعدًا لتقديم أوراق اعتماده.

من البرقيات أيضًا: نحن في انتظار التعليمات نخبركم أن قطة ماتت من بين الخمسين قط وقطة، ورشت الناحية بمسحوق وغبار طبي من قبيل الاحتياط.. السيدة حزنت على موت قطتها ولبست معطفًا أسود وشارة صغيرة سوداء وقبعة سوداء حزنًا على نرفت.

هكذا دارت المحادثات والمخاطبات في برقيات مرموزة

يعكف على فك مصطلحاتها ورموزها الموظف المكلف في الهزيع الأخير من الليل.

وقدمت إدارة المطار هناك كل شئ منسق بحسابه الغذاء – العشاء – الإفطار.

دواء وكشف طبيب بيطري يوم أن أفرج عن قططها حكت عقلية السفير صولة اللبوة..

- 4 -

هناك عند باب السفارة عند المدخل.. في ردهة الانتظار كان هناك ثلاثة طلاب من الدراسات العليا يريدون تجديد الإقامة وإتمام الدراسة في البعثة. هم من أهل النجاح والتفوق، اعتذر المسؤول الثقافي. لعدم وجود شئ في بند التعليم والثقافة، وتلكأوا عن علاج الطالب الآخر.

– نساعدكم من أين نأتي لكم بالتغطية الكاملة يا حسرة.. قالها الموظف وهو يداري وجهه من الخجل. انسحب الطالبان في صمت وإطراق.

– ماذا نصنع!

– بالإرادة والهمة.. نواصل الدراسة والثقافة.

– كيف!

– سنعمل بعرق الجبين نغسل الصحون والأطباق بالمقاهي والمطاعم. نكمل الدراسة..

قاضي الجمال

تخاصم اثنان في جدل صاخب وحوار متشابك لاغب متزمت جلمودي، وفنان مبدع، تحاورا أوتلاسنا.

- أنا أقبل أن يحاسبني الله على رؤوس الأشهاد وعلى ملأ من الخليقة، جهارًا نهارًا.

قال له:

- هون عليك طبعًا لن تكون محاكمة الله لعباده سرًا، بل يوم القيامة وعند الحشر والنشر علنًا على رؤوس الأشهاد.

- وما هو ذنبي؟ وما هي فريتي؟ وما شكل معصيتي؟.. لا ضرر ولا ضرار، لم أؤذي أحدًا، مؤمن سلم الناس من لساني ويدي فهذا في مقاييس القيم والأخلاق منتهى الكمال الإنساني من صفات العفة والوجدان.. جوهر كل القيم في المعاملات الإنسانية.

وحدجه بنظرة شاغبة، وخدشه بكلمة لاطمة،

- يا ويلك من نظراتك وبلحقاتك تطوح ترمي بك في جهنم.. ألا تخاف؟

أجاب في ثقة من نفسه:

- إيه.. وهل تراني أحاسب على معصية النظر إلى الجمال والنهم في التطلع إلى السماح الملاح؟ وهل هذه جريمة أو مؤاخذة

وجريرة.. أو أثم مستنكر. إذا قيس ذلك في الموازين بلسانك الحاد من الغيبة والنميمة والهبش؟ كما سيُحاسب آخرون على مظالمهم من اللصوص والسراق.

- إيه.. وعينك المتلصلصة للجمال.. يا ويلك قاله مدافعاً وموضحاً.

- أو تظن ذلك يتساوى في الحساب والحسبان؟

- كله حساب ومعاص وآثام سواء ضرب الرزام.. أو النظر برمش العين والبصبصة.

- لا أخطأت في المقياس والميزان،لا تتساوى الجمال نعمة.. هبة عطاء من الله.. من الطبيعة، «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها »وخلق الله للإنسان أحاسيس ومشاعر،أما الجلاميد المهابيد أمثالك لا يحرك فيهم الجمال والحُسن وتراً.

وقال الفنان المبدع:

- الجمال له جاذبية إلا عند الألواح البشرية أو القوالب الطينية لا يؤثر فيهم غنج أو صباحة الوجوه.. أو ميس القدود والجمال والإحساس الفني نعمة.. هناك درجات ودركات وهناك أنواع من اللمم، متعة الروح وراحة النفس شعور بإنسانية الإنسان.

وبعد ملاسنة وجدل احتد اشتد تطاول وامتد قال في اختصار:

- يبدو أني لا أقنعك.. ولا تقنعني.. ما رأيك نحتكم إلى ذلك الشيخ العالم الفاضل المجرب المحنك.. الدارس الفاحص حضرة القاضي. هيا إلى القاضي؟ في رحابه نحتكم.. وحقيقة بحكمه نحتكم ونرضي.



وتوجه المتجادلان. المتلاسنان إلى حضرة القاضي وسألاه يا مولانا:

- جئناك نحتكم.. افتنا في أمرنا.

- أي ذنب في الحساب والمؤاخذة أشد وأنكى؟ أترى الغيبة والاغتياب أو النميمة أو الاعتداء على الناس واللصوصية.؟. هل النظر إلى الجمال معصية يحاسب المرء عليها؟.

- قال حضرة القاضي:

- ماذا؟ ماذا؟

ثم ذهل عنهما.. وتطاول بعينه بعيداً واشرأب عنقه. لم يكن صاغياً إليهما، ولا شاعراً بوجودهما.. وأعاد السائلان السؤال بصوت مسموع لعل حضرة القاضي ثقيل السمع.. أو بإذنيه وقر:

- يا حضرة القاضي افتنا في أمرنا وكرر السؤال. هل النظر إلى الجمال والتأمل في الوجوه السماح الحسان يحاسب عليه المرء يوم الحشر والنشر؟

لم يلتفت القاضي إليهما وكررا السؤال.. مرة ومرة كان حضرة القاضي مذهولاً.. مشغولاً عنهما بالنظر إلى وجه صبوح وقد مليح من الحسان.. يبحلق في تلك المائسة وعيناه زائغتان تائهتان وتغلب النظر على السماع.. وانطلق الفنان المبدع مرحاً فرحاً وزمّ المتزمت شفتيه ثم سل منشار لسانه متوارياً في أضابيره وضباب كلماته.

خمسين مليون سنة

ما يشغله ليس كحة ما أجدى معها شراب، أوصى به طبيب ماهر، وركّبته صيدلية ممتازة، ولا وصفة شعبية دلت عليها ونصحت بها عجوز مجربة، وإن لم تستطع أن تتغلب على كحتها، ما شغله ليست مشكلة المياه، تلك المشكلة المستفحلة التي سببت عطش الزرع، وتضايق الناس من ملوحة الماء، لم تشغله القمامة المكدسة في مداخل زنقته ومسارب حومته، وقُرب مسكنه، يكدسها سكان لا وجدان لهم. ما أشغله ليس ما يسمعه من أحوال وأخبار عن زعامات تافهة باهتة، وقيادات فاشلة، ومطبات متوالية، في عهود العد التنازلي، وما تتناقله الصحف والإذاعات وما تتناثر به الفضائيات وما يلوكه الناس من شائعات.. بل هو من ذلك النوع الذى يطوي الجريدة طيًّا، وأحيانًا يمسح بها في الصباح نافذته، ثم يطوح بها، ما أشغله ليس هو شكوى امرأته من جارتها الجائرة، وعدم الصلح والتفاهم مع خالتك «صالحة النقناقة» وقد أسمتها «فالتة» أو «فالطة»، ولا حكاية كراسات ولده، ومستوى درجاته وتعثره في دراسته بالأصفار والحلقات المتوالية، شغله الشاغل وهمه الدائم، وأرقه المؤرق حتى عندما يسلم رأسه للوسادة، يسترخي ويتمدد محاولاً جلب النوم إلى

عيونه، لكن النوم لا يواتيه، ولا يتكرم بالقدوم البتة، لا يصرعه النعاس سريعًا كزوجته التي تشخر بـ «سيمفونية» عالية صاخبة، حتى الجيران القريبين يسمعونها، ويحاول أن يعدّل لها الوسادة، ويسوي من وضع رأسها، إذ يرى أن حالة الشخير ظاهرة أو لازمة تحدث من إمالة الوسادة، ووضع الرأس في وضع غير ملائم لكن ليس هذا ما يشغله إنما شغله وهمه سؤاله الذي يطرحه ولم يجد له جوابًا مريحًا، وردًا مُقْنِعًا: يا تُرى كم سيمكث بعد موته تحت الثرى!؟ يريد أن يعود للحياة بأي شكل، المهم أن يخرج من تحت أكداس التراب والحصى. قال الشيخ حزنون مُستشهدًا ببيت أبي العلاء المعري:

رُب لحد قد صار لحدًا مرارًا ضاحكًا من تزاحم الأضداد

وأردف قائلاً قاصدًا التنغيص عليه، ومناكفته وهو يعلم ما بينه وبين خصمه «فرحات الزاهي»:

- ربما يجاورك صاحبك «فرحات»، وتعوذ بالله من هذا التصور.

- أو يجاورك صاحبك الآخر «قدوره» وتعوذ وتحوقل مرتين.

حتى في مماته لا يرتاح من أمثال هؤلاء وعندما سأل من هو هذا «المعرّي» الذي ساق بيته شاهدًا؟ أجابه:

- هو شاعر فيلسوف احتفلوا منذ سنوات بعيده الألفي، وبيته بقي شاهداً خالداً.

ولكنه انتفض وامتعض وقال:

- وما فائدة خلود كلامه وما عرف كم سنة يمكث تحت التراب والحصى.

وطاف بسؤاله المربك المزعج وقال له أديب فنان عندما طرح سؤاله المفاجئ الغريب:

- أنصحك إطوي هذا السؤال، أرح نفسك من عنائه.. وتمتع بحياتك. عش يومك، ولا تكن كُزمة.. طُرمة.. كالشيخ بُرمة فرحات.. استغل فرصة حياتك، وتمتع بنعمة وجودك، اطرح هذا السؤال وأمثاله في مزبلة الإهمال بعد اغماضتك الأخيرة، في رقدتك الأبدية، لا يهم يعملوا عليك مزرعة، أو يوسعوا الطريق وتكون ساحة ورصيفاً للسابلة والمارة أو موقفاً للعربات والسيارات بل أحياناً ربما يعملوا عليك حديقة عامة من حسن حظك بها ورود وزهور.

وقال زميله الآخر:

- ومن يدري قد تكون صدفةً في التخطيط، وقد تكون مشخة عامة.

وردّد طالب علم بيت «المعري» من قصيدته الشهيرة لصقت

في ذاكرته من المحفوظات:

خفف الوطء فما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

- ومالك سيدي مشغول منشغل بهذا ستبقى أبد الآبدين مثلك مثل سائر الخلائق من الصالحين والطالحين، لا أعرف مدى الزمان الذي تبقى فيه تحت الأرض، تغدو حفنة من تراب.. يبنوا عليك عمارة ويهدمونها.. إيه.. حتى الأحجار لها أعمار وهكذا دواليك إلى قيام الساعة.. والساعة علمها عند ربي، هذا شيء من الغيب ويجب أن تؤمن بالغيب إجمالاً البحث عن التفاصيل أمور تزعجك هي أمور لا يعلمها أحد من البشر كن طائرًا في سرب، غرد كما تغرد الطيور التي هي أعمارها قصار.. بالنسبة لأعمار البشر، هل رأيت في حياتك طائرًا كئيبًا!؟ أو زهرة حزينة في مواسم الربيع.



كان يدير أملاكه التي ورثها ويعمل في متجره بالسوق المزدحم بالخلائق والبضائع والمسارب المتعددة، وآثر الأعمال الحرة، مبتعدًا عن التوظيف لقيوده ومحدودية إيراده ورواتبه. هو نهم متلهف على الحياة يكره المنغصّات المزعجات درس مرحلة وقطع شوطًا يسيرًا أخذته أو جرفته السوق وإغراء

مكاسبها وكره مقاعد ودفاتر الدراسة ومواسم الامتحان لم تغره الشهادة أو الألقاب العلمية.. آثر عليها دفاتر الدخل والخرج ودفاتر الصكوك والأرصدة مَالَه ومال وجع الدراسة، أو قيد التوظيف.

أرقه.. وأتعبه وأتعب الناس بسؤاله الذي طاف به وحمله، ولا خشية الشاعر «دعبل الخزاعي»: كم سيبقى تحت الثرى، حتى يعود مرة أخرى للحياة والهواء الطليق، وكم كان مؤلًا له عندما صدمه أحد زملائه ساخرًا من سؤاله:

- تتلهف على العودة، وما يدريك قد يُطوح بك في جهنم التي لا تشبع وتقول هل من مزيد جهنم وبئس القرار.. فلا خروج ولا فرار، ربما تبقى تحت الثرى خير لك، وارحم بك من نار الله الموقدة.

لكن خفف عنه هذا التوقع التشاؤمي والتصور المرعب بالنسبة للسائل ما أجابه به صديق آخر:

- رحمة الله واسعة، لماذا تضيقون واسعًا وتغلبون جانب التشاؤم.. سبحانه غفور رحيم ويعفو عن كثير.

- عش حياتك.. لا تبدد هبة الحياة فيما لا طائل من مِن ورائه.

لكن كل هذا لم يبعده عن السؤال الملح الدائرية في دوامة

الحيرة والانشغال.. سِينات لم يجد لها جيمًا، قال له الشيخ «عبد القدوس رضوان» الذي كان يؤم بهم الجمعة:

- وهل هذا سؤال يارجل.. اتق الله.. إنت حامل هم لا يُحمل، اتلهي على عينك.. وريّح روحك، الأمر واضح جَلِيّ.. ستمكث إلى يوم القيامة يوم يبعثون بمشيئة الله وقدره، فاهم.. مثل الناس أجمعين اكتعين.

- وتساءل الشيخ عبد القدوس رضوان في استغراب وتعجب أحيانًا، وفي تخوّف وإشفاقٍ أحيانًا.

- بلدياتكم وابن عمكم صاحب السؤال هذا؟ هل أصابه مس من الجن، أصابته لوثة عقلية وتفككت مفاصل مخه أو ارتجت عقيدته وهذا أدهى، وموجة الإلحاد والزيغ خطيرة هل وصلت إلى بيئات طيبة.

وحاول أن يقنعه، شارحًا أنه من صور الإيمان بالغيب ونصّت عليه جميع الأديان والشرائع السماوية وماله يربك نفسه، حاول أن يقنعه أو يتخلص من سؤاله:

- تمكث إلى أن ينفخ إسرافيل في الصُور.

ولم يسكت إزاء هذا بل في تعنت سأل:

- وما مهمة إسرافيل!؟

- ألم يعلموك في المدرسة كل ملاك له مهمة ومهمات، وسيدنا إسرافيل له مهمة واحدة النفخ في الصُور وهو دومًا على أهبة الاستعداد.

- «حاضر باش» لكن ساعة الصفر أو الإذن يعلمها الله وحده. فإذا نفخ عند ذاك تقوم من مكانك، منْ مرقدك هارعًا مسرعًا إلي حياة أخرى، نحن نومن بالنشور.

وردد سؤاله الملحاح

- متى.. كم أمكث تحت التراب.

- قلت هذا من علم الغيب، علم الساعة عند ربي أما قرأت أما سمعت الآيات التي حول هذا.

وسأله آخر مستغربًا من سؤاله والحاحه.

- أين تعيش!؟

- شارع بوغوله.. رقم...

- يا أخي.. أين تعيش، أي بأفكارك وتصوراتك لا سكنك المنزلي لا يهمني أمر ذلك.. ما أصنع به أبوغوله أو أبو عفريت.

وتدخل آخر ليرتاح من الحاحه.. وليجد ما يسكته أو يلجمه:

- أنا أقولك ألف.. ألفين، أو يخرجك زلزال أو عاصفة قاصفة ناسفة، أو بركان عندما ينقلب الكون.

- هل تريد أن تتدخل في قدرة الله وقوانين الكون كل شيء عنده بمقدار، بحسبان تقول بعد ألف ألفين أو مليون وملايين الله أعلم.



وامتقع لونه وهو يتساءل:

- أمكث تحت التراب قرن!؟

أجابه:

- وقد يكون أكثر.. قل لي صراحة على أي شيء تخاف إذا سُلت روحك أو تسللت.. ما تتركه من ميراث سيتبدد.. يذهب بددًا، وقد يصبح شارعك نهرًا، أو شجرًا وحُطامًا الله أعلم.

- ما يهمك يا صاح بعد أن ترقد الرقدة الأخيرة ترتاح الراحة الكبرى، لا يهمك شيء لطف الله بك تخلصت من متاعب الدنيا، ومطاردة الناس لك بالديون أو مطاردتك لهم أجازة طويلة بين حساب الدنيا وحساب الآخرة.

- كم يبقى التراب فوق صدري!؟

- لهم حق أن يتهربوا من طريقك، ويتحاشوا أسألتك قل لي أيها اللكع الملحاح.. هل أنت خير وأفضل من الرسل والأنبياء وصفوة العباقرة والأفذاذ والمخترعين والمكتشفين والمبدعين والمناضلين الأباة، وأصحاب الملايين تركوها وتركتهم وأصحاب الطيلسان والهيلمان.. والشهرة تتلاشى ومع مرور الزمن تتبخر.. حل محلهم آخرون وآخريات.. أنت الخائف المرتعد.. أنت مجرد فرد في دكانك في سوق الظلام، أو زنقة بوغولة ما هو وزنك حتى تسأل عن موعد عودتك؟

قال صاحبه وهو يداوره.. يخنقه بالكلمات ويكاد يطبق عليه بأصابعه:

- إنت عبارة عن هفوة.. ريشة قشة في محيط وتيار جارف، ولا حتى شعرة في جسد ثور هبوة في عاصفة أو خيط دخان يتلاشى لا أثر يذكر ولا بصمة تدل.



وتدخل أحدهم من الذين يعرفون انفلات أعصابه وحماقة تصوره وأراد استفزازه.

- قد تجاورك في همدتك تحت الثرى الحاجة رجعة.

وهنا انتفض قائلاً:

- أعوذ بالله هذه بخرة الفم، وآباطها لها صنان يدوخ.

ولإثارته ولمزيد من تحريكه والتنغيص عليه قال:

- قلت بخرة يبدو إنك قبلتها.. ولها صنان.. تعنقتها كيف عرفت وهذا شيء لا يعرف إلا عن قرب وشَمْ واقتراب واحتكاك.

وصمت الرجل صمتًا زاد من ربكته وحيرته وحاول أن يدافع عنه زميله أو تظاهر بالدفاع عنه قائلاً:

- ربما أيام شيطنة الشباب، ربي يغفر.

وقال ليحركه أكثر.. فقد فتح على نفسه بابًا لا داعي له:

- إيه صاحبك تفكر رجعه ونسي سي سنور.

- منه سنور يا سي اللوح.

- سنور المرتكاوي.

وانتفض

- أعوذ بالله.. تحصنت بالله اللهم لا حوالينا ولا علينا هذا ركيك، ثقيل الدم.

- لكن ساعتها ما يكون عنده دم، ولا عندك إحساس.

وضغط على إحساس لإغاظته وإثارته.

- جيرانك في البرزخ.. يا بختك.. أين المفر، الحاجة رجعة عن يمينك، وسنور المرتكاوي عن شمالك.

-2-

وكان هناك الشيخ «كركوم» ممراح، خفيف الظل، فيه دعابة، يكره أن يلْتقي مع هذا السائل المتثاقل بأسألته، فقد طارده وحاصره، حتى جعله يتهرب منه منفلتًا متوجسًا يتملص.. يتخلص من سؤاله، لكن لا فائدة.. فهو عندما يشاهد الشيخ «كركوم» يخب في السوق والشارع بجبته المميزة وعمامته المائلة المتزحلقة.. يبادره بالسؤال الذي أرّقه. وأرّق به وينغص على «كركوم» الذي ما أن يلمحه من بعيد حتى يسرع بالتواري أو الجري كي لا يلحقه وأحيانًا يتنكر مُتلفلفاً في عباءة الصوف التي أجادت أصابع بنات الجبل أو بنات مصراته صنعها، وشريها من جاره في سوق الظلام. وفي مهارة يتقن التلفلف بالعباءة يتكمكم يتغمغم بحيث لا يمكن أن يتعرف عليه المطارد له بالسؤال ونصحه أحدهم من الذين يوزعون النصائح المجانية وعندهم نصائح لكل معضلة وهم غارقون في المعضلات لكن يتطوعون بالنصائح:

- أنت لماذا تتهرب منه.. المسألة بسيطة أنت خايف منه إلي هذه الدرجة يلعن بوه يزعجك ويضيع وقتك.. سدها الباب قول له كلمة مختصرة.. كلمة ونص كلمة وقُص الله أعلم..

كلمة معقولة منقولة قالها أكبر العلماء.

- الله أعلم أو قوله.. إسأل المفتي، أو حوّل سؤالك إلى هيئة كبار العلماء.

وقال آخر أيضًا من جماعة التطوع أو التدخل بالنصائح:

- قله، ارسل سؤالك لبرنامج جوابٍ لكل سؤال.

لكن أحد القبضية القدامى قال:

- التخلص منه سهل، اتخانق معه، هذا الشيطان سبّه وارفع عليه قضية.

- يا «كركوم» بالك وراء الأكمة ما ورائها.

- آش قصدك.. وما هي هذه الأكمة.

- لازم، وحسب تخميني، وفراستي أحدهم سلطه عليك وإلا هل معقول يشتغل بهذا الموضوع إلى هذا الحد.. ويقصدك إنت بالذات.

وتوالت النصائح على كركوم مثل الوصفات التي يتبرع بها بعض من الناس، اعمل كيت وكيت وقد يلفق بعضهم وصفّة لم يجربها ولكنه استعراضي يتظاهر بالمعرفة والخبرة والتطوع بإبداء النصيحة.

- اسمع تخلص منه واعمل مثل «جحا».

- تُرى هل «جحا» واجه مثل هذا السؤال المحيّر أظن مسكين «جحا» حملوه أكثر مما يتحمل، لو وزعت الحكايات والنكات والمأثورات والمضافات إليه من أجوبة وكلام على أيام عمره بل ساعات عمره. نجده بهذا الحسبان لم يسكت ساعة في عمره.. قال.. وروى.. وعمل.. إلخ .

وساق الراوي حكاية جحوية الله أعلم بصدق نسبتها إليه.. ونصحه أحدهم ناصحًا نصيحة غير بريئة، لفق عليه إشاعة شديدة الالتهاب سريعة الانتشار سيتحاشاه جيرانه والزملاء ويصبح مهجوراً وقد ينطوي ويرحل وترتاح منه، وتفتك من وجهه ومن مطاردة سؤاله الملحاح المنغص به على نفسه وعلى الناس:

- أية فكرة جهنمية.

- أعوذ بالله من جهنم، ومن الأفكار الجهنمية.

- لا.. حرام هذا الكذب عليه أو تلفيق إشاعة ضده قد تقوض أركان بيته، هو مجرد رجل مسكين ساذج، مرعوب من المكوث طويلاً تحت الثرى والحصى.. مجرد تخوف وليس ملحداً.

مع أن بعض أدعياء الكتابة «موضة» أو ظاهرة للشهرة والانتشار، أو لترويج بعض تفاهات ونفايات ما يكتبون، بضاعة قليلة بلا موهبة ولا فكر ويكسبون شهرة، وتسليط

أضواء. هذه حالات أصبحت معروفة في الساحة حتي في أوربا وبعض مناطق متقدمة متحضرة.

- إيه الحاجة في نفس يعقوب وغير يعقوب ويا ضيعة الفكر والأدب والإبداع الأصيل.

- هل أذكر لك أسماء ودمى لمعت ببريق مصطنع وأصباغ مزيفة.. أسماء من هنا هناك وهنالك.

- يا أخي هذا موضوع آخر يحتاج إلى يقظة وتنبيه.. لكن صاحب السؤال المؤرق حالة أو شكل آخر، وهو افصح عنها وهناك كثيرون قد يؤرقهم أحيانًا سؤال ولا يطرحونه.

وتدخل شاب مثقف قائلاً:

- ليس كل حيرة وتساؤل تعتبر من المروق والزيغ خاطئة عبارة (كل من تفلسف تزندق) الفلاسفة وجه مضيء في تاريخ الحضارة والفكر ولازال «كركوم» مشغول في إيجاد طريقة للهروب من صاحبه المطارد له. وشاهد شابًا من أقاربه يدرس «الكمبيوتر» قال له بعد أن انفلت منه «كركوم» واتروى عنه:

- أريد أن تقدم لي خدمة والتحقق من موضوع أرقني، أريد حسبة على جهاز «الكومبيوتر».

ولأول وهلة ظن الشاب أن ذلك يتعلق بتجارته ومعاملة دكانه..

ومجرد حسبة بسيطة.

- حاضر.. تحت أمرك.. أي خدمة لكن رجاء من فضلك أن يكون ذلك غداً.. لأني اليوم مشغول متعجل، ياليتك قلت لي الأسبوع الماضي كان لدي شيء من الفراغ.

- لن آخذ من وقتك طويلاً مجرد سؤال عن حسبة.

- هل وصلت حاجتك في المعاملة إلى ضرورة استعمال «كومبيوتر» -حاسوب- إيه تطورت يا حاج كان الواحد منكم في سوق الظلام أو سوق الجريد أو سوق حداش أو سوق الرباع واللفة يحسب دمغي أو بصوابعه، أو بأرقام الغبار، ويكتب على كاغط غليظ بقلم رصاص.. أو كوبيا يسموه لابس توًا ماشاء الله الخير كثر.. كومبيوتر واستعمال «الإنترنت».. والفاكس وهذه الأجهزة والآلات ميسّرة.. سهلة لماذا لا تشتري جهاز كومبيوتر لك في دكانك وتتعلمه.. على كل ماهي الحسبة التي تسأل عنها؟

أجاب:

- خمسين مليون.. بس احترت..

وقبل أن يكمل ما بعد بس من عبارات لأنه تحدث بهدوء ولم يكمل الجملة.. خمسين مليون.

- إيه ماشاءالله.. العاطي حي.. يرزق من يشاء بغير حساب..

سبحان الرزاق خمسون مليون هذه ميزانية دولة صغيرة من أين لك خمسين مليون.

واستحى أن يقول له -أنه عندما كان طفلاً شاهده يخدم في منزلهم- وأنه كان ينتظر زكاة موسم عاشوراء، وسكت وبلَع كلامه لأن الثراء المفاجئ في العصر الحديث ما عاد مستغرباً والوسائل السرية أكثر من العلنية لكن هذا شكله ووضعه لا يمكن أن تقفز إليه الخمسون مليون، هل يكرر عبارة من أين لك هذا.. أو من وصل إلى هذه الأرقام لا يقال له من أين لك هذا، المهم لماذا يشطح به التصور.

وأجابه:

- يظهر التبس عليك الأمر لم أكمل كلامي، ولم تعرف حقيقة السؤال أنا هنا أسأل ولست أخبر، أنا أستفهم كم في خمسين مليون من شهر وأسبوع هل تستطيع أن تضربها وتستخرجها من جهاز «الكومبيوتر» الحاسوب؟

- وما العلاقة بينك وبين هذه الحسبة؟

- كان يقال زمان من أنواع الحساب «حساب ايقش» أو «حسبة برما» في المشرق.. وفي الفصيح، ضرب أخماساً أسداس، خمسين مليون، قداش في قداش، هل ذلك من نوع

اللغز، فوازير اخّراف سما!؟ الله يرحم جدتي كانت مخزنا لهذا النوع من الأسمار والأدب والفن الشفاهي، هل تريد أن تدخل بها فى مسابقة من تلك المسابقات المنّوعة المشخلعة التي تكاثرت عبر ساحات المجلات أو شاشات المرئيات - ما يهمك من عد السنين والحساب؟

وأجاب قائلا للشاب الكمبيوتري:

- يترتب عليه راحة بال، أريد أن أعرف كم سنة سأمكث تحت الثرى.

وبحلق الطالب الشاب في وجه عمه السائل الحاج «عرجون» تُرى هل تَخبّل عقله، وارتج مُخه أم تراه تناول شيئا من تلك الحبوب والسفوف سربها الخبثاء الملاعين للبلاد، وما كانت تعرفها وقال له زميله في الدراسة:

- لا تشغل بالك عمك يمزح، يفذلك.

- لكن في أسرتنا تقليد متوارث، متعارف عليه، لا يمزح ولا يفذلك الكبير مع الصغير والأشيب مع الأمرد، احترام متوارث، ووقار تلقائى وراثي غير مصطنع ولا متكلف.

وألح في طرحه لموضوعه.

- كم سيمكث مطويا مجندلا تحت الثرى.

- مثلك كمثل سائر عباد الله الطيبين وغير الطيبين إرادة الله، إيمان بالغيب والغيب لا تفاصيل له عند عقلية الإنسان الجواب الشافى المريح -الله اعلم.

وقال في نفثة مصدور ووَحوحة المتأزم:

- رأيت الشيخ كركوم يتهرب، يتزورق مني، كأني خصم له الله يلعنك من شيخ.

قال مستمع لحديثه:

- لعن المؤمن عيب، ولا يصح تأدبا، وتدخل أحد قدماء الأزهريين من المشحونين بلاغة ونحوا وصرفا ولا يستعملون هذه البضاعة المخزونة إلا نادرا ودافع عن صاحبه قائلا:

- هذه لازمة حديث، وتكئة كلام في الفضفضة والمداعبة والتنفيس.. هنا غير مقصود معنى اللعن! مثل ما يقول العربي من الاقحاح الفصاح «ثكلتك أمك» أو «تربت يدك» ويقول الشامي «تقبرني» ويقول الليبي «طيّح سعدك» أو المصري.. «جتك نيلة، جتك داهية» مجرد ركزة كلام.

وقال الرجل مكررا طرح موضوعه:

- ماذا يصنع المشيوخاء ألم أجد عندهم جوابا، أما نواقص

الوضــوء، والمسح على الخـفين ومـا يجـوز ومـالا يجـوز منه التيمم حتى أمي تعرفها.



والشيخ «كركوم» عندما يلمحه من بعيد ينطلق مادا قدميه مـهرولا مـخافـة أن تقع عليه عين السـائل، حـتى أن جـبتـه أو «كاكولته» طرف منها شبك بمسمار في الحائط، كانت قديما تربط به الخيل والحمير، وتربط به الكلاب حديثًا، عندما كان الأجانب يتجولون بكلابهم المدللة، وذهبت الخيول وأصحابها وبقى المسمار- وكاد الشيخ المهرول يكب على وجهه عندما تخبل في جبته وانزلقت قدماه وعندما سمع أحد النظّامين من شعراء سوق الظلام قال عن حكاية تعثر «كركوم» وهو يتهرب من صاحب منغص له:

- وسمو يومها.. يوم الدمدمة أو يوم الكركبة.

-3-

وتوجه بالسؤال إلى الشيخ «حسبان حسيب سحبان» هل عنده علم كم سيمكث تحت الثرى.. يا هل ترى! وكان حسبان حسيب سحبان من ظرفاء قريته، وهاجر إلى المدينة عام الجراد وكانت روحه خفيفة ودمه خفيف .. كل ما عنده خفيف،

حتى جيبه وحجمه، وجوابه من النوع التهكمي سريع الطلقات أو حاد الأسهم عندما طرح استفساره قال:

- تجد عنده «تودد الجارية» وتركه هاربا.. أما هو كأنما عثر على الخيط والضوء.

- أين أجد تودد الجارية وهل بقي في هذا العصر جواري؟

وقال له أحدهم من المهتمين بالأسماء تودد اسم موجود. قد انقلب إلى وداد.. أو ديدي.. أو ما شاكل من ترجيب الأسماء.

- لكن لماذا تبحث عن تودد الجارية!؟

- أريد جوابا متى أقوم من تحت الثرى ألف عام.. ألفين!

وهرش الرجل جلد رأسه، وفرك شعره ويحلق زاهلا وقال:

- يا سيدي.. تودد عندنا لا تقرأ ولا تكتب كيف تجاوبك!؟ مرارا يأتي إليها تبحث عن ثقة يقرأ لها الجواب..

وأخيرا قال له أحد المثقفين ناصحاً:

- لا تتعب نفسك «تودد الجارية» كانت في عهد هارون الرشيد.

وفوجئ به يقول:

- وأين أجدها.. هل تعرف عنوانها..،

ورد عليه:

- قلنا لك في عهد هارون الرشيد، جادلت كل العلماء وغلبتهم، في كتاب وقصة «تودد الجارية» جواب لكل سؤال علمي يطرح، غلبت العلماء، ويوجد في النهر ما لا يوجد في البحر، وأحيانا أمرأة بذكائها أعلم وأكثر فطنة منْ عالمٍ يخب في قفاطينه، وأحيانا بنت ذكية ذات موهبة أفلح من ديكتور.

-4-

ودله مثقف آخر على قصة «تودد الجارية» في ألف ليلة وليلة، وهى عندها محاورات أفحمت بها العلماء، وهى أذكى وأوسع علما من برامج الفضائيات والفاضيات، وبعض برامج ما يطلبه الجالسون أو السائلون. المهم اشترى «تودد الجارية».. أى قصتها بها محاورات وأجوبة علمية وظل ليالى يَقرأ ويُقرأ له، لكن لم يجد عندها ردًا لاستفساره كم سيمكث في البرزخ وتحت الثرى. لكن بائع الكتب رفض أن يبيعه الجزء الذى به قصة «تودد الجارية» فقط.. بل أعطاه أربعة أجزاء ليقرأ النسخة كاملة لألف ليلة وليلة لكنْ لم يجد مبتغاه في حكاية «تودد الجارية».

كان «كركوم» يمر من الشوارع الخلفية والحارات والزناقي

تحاشيا من لقاء هذا النوع من الاستفسار كم سيمكث الإنسان تحت الثرى في جوف الأرض. يقول مجربوا الرياضة تحت الماء غاطس لا يزيد عن خمس دقائق وبضع ثوان وثلاث رمشات ثم بالضرورة التلقائية يقب ويطفو على سطح الماء للشهيق والزفير، وتحت الماء غطاس بأدواته وإلا بعد دقائق اختنق أو فطس.. إلا حكاية في غواصة هذه حاجة أخرى.

- وأنت ما دخلك في حكاية الغوص والقَب هل يستعد ابنك أو ابنتك لامتحان في المدرسة شوفلك مدرسا خصوصيا يلهط ما تبقى لديك في الكيس أو الدرج.

- استفساري عن المكوث تحت الأرض في طيات الثرى لا الغطس وتحت الماء.

وهز صاحبه رأسه متظاهرا بالإدراك والتفهم وقال:

- إيه.. فهمت لعلك تقصد عمال المناجم تلك الفئات الكادحة.. منهم ضحايا كثيرون، ومن لم لكن ضحية أثرت المهنة عليه على طول المدى وفي أواخر عمره.. تتأثر صحته من عمله تحت الأرض.

- وقال شاب يهتم بتاريخ الشعوب وتطورها:

- وهناك تحت الأرض تعبير اصطلاحي في قاموس المناضلين

تعرفه كثير من المراحل النضالية.

وأجاب آخر..

- لا.. لا.. هذه أشياء بعيدة لا يعرفها صاحب الاستفسار هو يسأل عن بقائه في البرزخ تحت الثرى كم سيمكث.. هو متخوف من الموت والمكوث بعد الموت تحت الأرض.

- هذا تخوف مهووس.. الإيمان وعمق الإيمان يزيل هوس المتخوفين..

- يا أستاذ تحت الثرى والركام متى يقوم، هذا ما يقصدْ ولهذا تهرب من إلحاحه كل من لقيه وتعثر به.

- قل له بسيطة.. بلا تخوف ولا تفلسف ولا حيرة اذا قامت القيامة وحدث النشور.

- ومتى تقوم القيامة هذا بيت قصيده وموطن مبتغاه..

- الجواب الشافي الكافي الله أعلم الساعة علمها عند ربي خالق الكون سبحانه، وإذا كان هناك دجالون على مختلف المراحل والعصور حددوا توقيتا معينا لقيامها.. لا يعلم ذلك حقيقة إلا الله وحده.

كذب المنجمون والراصدون جزافًا، ها هي الأرض دائرة

والحياة سائرة تستقبل بطن الأرض.. الطوائف والأجناس ومن حضر أجله.. وتولد وتنجب بطون النساء.. والحياة حلوة.. بهيجة.. نعمة، وهبة من الله خذها كما هي.. وساهم في تطور الحياة.. وصنع الجمال والخير.. لا تتعب نفسك بالحيرة كم سأمكث تحت الثرى!

- لقد هرف كثير من الأدعياء لكن ها هي الحياة في مسارها وقوانينها الطبيعية بإرادة الله.

-5-

قال أحدهم لينهي جدله واستفساره وأراد أن يزيح هذا المهموم والمتخوف من المكوث تحت الثرى.

- يمكن تمكث ألف.. ألفين.. ثلاثة ألاف.

قالوا هذا ليرتاحوا من الحاحه ومطاردته لهم لو كان عنده إيمان لما شغل نفسه بهذا الموضوع .. الإيمان راحة، واحة اطمئنان، لكن صاحبهم أغمض عينيه وفتح فاه ذا الإسنان المتسوسة المتهرئة! وصاح.. ياه.. ياه ألف.. ألفين.. ثلاثة ألاف تحت الثرى!!

قال له الشيخ «حذارى».

- قل مليون سنة.. وهل أنت وحدك.. كل الخلائق.. سبحان الله ذو القدرة، له حكمة في ذلك «ليبلونكم أيكم أحسن عملا» الآية.

-5-

وتضايق منه من حاصرهم بطرح تخوفه.. كم يمكث تحت الثرى.. عند إلحاحه قال:

- خمسين مليون سنة..

كاد الرجل الملحاح تخرج روحه وهو يشهق.



ومازال يتصيد الشيخ «كركوم» وجده في سوق الحوت يبحث بعينه، ويشمشم بخياشيمه، يتفحص أنواع الحوت، ويقارن بين الأصناف.. ويختار الطازج الجيد ويفتح أوداج الحوت المعروض ليتأكد من طزاجته، وأنه ليس خامراً.. هو ذواقه استطعامي، كان منهمكا في الاختيار.. هذا للقلي هذا للكوشه والفرن.. هذا لنوع الحرايمي بالثوم والبهارات.

وفجأة.. بغته.. بلا حسبان ولا توقع أطبق على الشيخ كركوم.. صاحبه الملحاح بطرح استفساره ورشقه بنظرة

محاصرة حتى سقط الحوت من بين أصابعه.. وما عرف كيف يتخلص إلا بعد لأي وبادر كركوم بالتوجه إليه قائلاً:

- أرجوك.. أنت عايش أين؟!

أجابه: في سوق الظلام.. زنقة بوغوله وأسرع الشيخ «كركوم» من خطوه مسرعاً ليتوارى خوفاً من أن يطيل معه الوقوف.



ومرت أيام قلائل وطالع الشيخ «كركوم» في الجريدة الصباحية إعلانا مع صورة في مربع لصاحبه الملحاح وتفرس في الصورة ظنه توفي وانتقل إلى رحمة الله، عادة لا تُنشر في هذه الزاوية والمربع إلا تحت باب «انتقل إلى عفو ربه» ولكن تحت الصورة بكبوسه الذي فوق رأسه عبارة - خرج ولم يعد من عثر عليه يبلغ أهله. شاهد أصحابه وجيرانه الشيخ «كركوم» يمشى في السوق متباطئا يمارس هواية المشى على مهل، الدنيا لن تطير ليس هناك ما ينغص عليه أو يشغله.

1997-7-3

سويسرا- برن

الفهرس:

بنسيون البطة العائمة................................ 7

أنت مرشح للوزارة 31

صلعة في روما 55

أيهما أصح نظراً 75

برنوس هدية 95

فض الشراكة 103

مباراة في البوس 121

هل عندك ديب 135

قطط عقيلة السفير 151

قاضي الجمال................................ 169

خمسين مليون سنة 175

مؤلفات وتحقيقات

علي مصطفى المصراتي

1- أعلام من طرابلس - مطبعة ماجي - طرابلس 1955م.

2- لمحات أدبية عن ليبيا - المطبعة الحكومية - طرابلس 1956م.

3- إبراهيم الأسطى عمر - شاعر من ليبيا - دار الكشاف - بيروت 1957م.

4- جحا في ليبيا - مطبعة ماجي - 1958م.

5- صحافة ليبيا في نصف قرن - دار الكشاف - بيروت 1960م.

6- غومة فارس الصحراء - مطبعة الغندور - بيروت 1960م.

7- أبو قشة وجريدته في طرابلس - مطبعة الغندور - بيروت 1961م.

8- المجتمع الليبي من خلال أمثاله الشعبية - المكتب التجاري - بيروت 1962م.

9- مرسال - مجموعة قصص - المكتب التجاري - بيروت 1963م.

10- أحمد الشارف - ديوان ودراسة - المكتب التجاري - بيروت 1963م.

11- ابن حمديس الصقلي - اقرأ - دار المعارف - القاهرة 1963م.

12- نفحات النسرين والريحان في تراجم من كان بطرابلس من الأعيان لأحمد النائب - تحقيق ودراسة - المكتب التجاري - بيروت 1963م.

13- الشراع المرزق - قصص - دار الكتاب العربي - القاهرة 1963م.

14- حفنة من رماد - مجموعة قصص - مطبعة الغندور - بيروت 1964م.

15- أسد بن الفرات - فاتح صقلية.

16- سعدون - المكتب التجاري - بيروت 1964م.

17- رحلة الحشائشي إلى ليبيا - تحقيق ودراسة - دار لبنان 1965م.

18- ديوان مصطفى بن زكري - تحقيق ودراسة - دار لبنان 1966م.

19- مجمع الجهلة - بيروت - 1972م.

20- فنون الأدب الشعبي في ليبيا - المطبعة الحكومية طرابلس - 1968م.

21- ابن غلبون - المطبعة الحكومية طرابلس - 1968م.

22- ديوان أحمد البهلول - تحقيق ودراسة - دار لبنان 1967م.

23- الصلات بين ليبيا وتركيا التاريخية والاجتماعية - المطبعة الحكومية طرابلس - 1966م.

24- مؤرخون من ليبيا - المطبعة السريعة - الشركة العامة للنشر والتوزيع 1977م.

25- رسائل القليبي بين تونس وطرابلس - الدار العربية للكتاب 1976م.

26- جمال الدين الميلادي - مطابع الثورة العربية - الدار العربية للكتاب 1976م.

27- الشمس والغربال - مجموعة قصص - مطابع الدجوي - القاهرة 1977م.

28- نماذج في الظل السفر الأول - مطابع الثورة - طرابلس 1978م.

29- التعابير الشعبية الليبية - دلالات اجتماعية ونفسية السفر الأول - المنشأة العامة للنشر والتوزيع - طرابلس 1982م.

30- خمسون قصة - 1983م.

31- الجنرال في محطة ڤيكتوريا - الدار العربية - 1991م.

32- صائدة الفراشات - 1992م.

33- القرد في الطار - 1992م.

34- عبد الكريم تحت الجسر - 1992م.

35- قطرات من يرا ع - 1992م.

36- التعابير الشعبية - السفر الثاني.

37- نماذج في الظل - السفر الثاني.

38- وخمسون قصة أخرى.

39- ومضات قصصية - الطائر الجريح.

40- رفاق سعدون.

41- صندوق التفاح.

42- الوفد.

43- رسائل أحمد زارم إلى محمد بن عباس.

44- ولا يزال المعطف معلقاً. مركز الحضارة العربية، القاهرة، 2005.

45- حكايات.

46- الدخول من الباب الخلفي.

نوعان دوما تحاصرهم دوامة الأوهام والوساوس: المتزمتون جدا والمعربدون جدا، كلاهما طرف نقيض من ناحية، ولكنهما من ناحية أخرى يلتقيان في نقطة كلاهما أكثر الناس شكا ووسوسة ووهما، وأقربهم إلى هلوسات الوساوس والهواجس أوعدم الطمأنينة والاستقرار النفسي.

$ 4.500

